

3

المهاتما غاندى

الثائر



هذا ما قاله غاندى ...

« إن عواطفى كلها مع اليهود ولكن عطفى عليهم لن يعمينى عن مقتضيات العدالة ، فأنا لا أستسيغ المطالبة بإنشاء وطن قومى لليهود ، ففلسطين ملك للعرب ، تماما كما أن انجلترا ملك للإنجليز ، وفرنسا للفرنسيين . وإذا لم يكن لليهود وطن إلا فلسطين فكيف بهم إذا أرغموا على ترك الأماكن الأخرى التى يعيشون فيها فى أنحاء العالم ؟ إن فلسطين التى جاء ذكرها فى التوراة ليست فى رقعة الأرض الجغرافية ، بل هى فى قلوبهم . أما إذا كان لابد لليهود من أن يتمسكوا بفلسطين ، الأرض الجغرافية ، فمن الخطأ كذلك أن يدخلوها فى ظل المدافع البريطانية وعلى أسنة رماحهم - وليس هناك ما يمكن أن يقال ضد مقاومة العرب فى مواجهة عقبات لا قبل لهم بها »

المهاتما غاندى

من مقال له فى مجلة « هاريجان » بتاريخ ١٢ نوفمبر سنة ١٩٣٨

المهاتما غاندى
الثائر

حياتى

هى رسالتى

اهداءات ١٩٩٩

ا/ محمود محمد علي العيسوي
الإسكندرية

ولد في: ٢ أكتوبر سنة ١٨٦٩
توفى في: ٣٠ يناير سنة ١٩٤٨



« لا أريد أن تكتنف الحوائط بيتى من كل جانب فتحجب عنه النور والهواء ، بل أريد أن تهب ريح الثقافات عليه من كل بلاد الأرض فلا يعوقها عائق ما أمكن . لكننى أرفض أن تكتسحنى ريح منها أو أن أعيش فى بيوت غيرى متطفلا،أو سائلا ، أو عبدا »

* * *

« على من يسعى وراء الحق أن يكون أكثر تواضعا من التراب نفسه ، فالناس قد يسحقون التراب تحت أقدامهم ، أما الساعى وراء الحق فيجب أن يتواضع حتى يسحقه التراب . فنى هذه الحالة وحدها يستطيع أن يرى قبسا من نور الحق »

* * *

« انى رجل مؤمن ، واعتمادى كله على الله . واذن فحسبى ان أسير خطوة واحدة ، أما الخطوة التالية فسوف يكشف الله لى عنها حين يحين وقتها »

* * *

« لعلك تذكر يوم تبع نفر كثيرون من الأعداء أبا بكر الصديق وهو يصاحب رسول الله فى هجرته . وقد خشى أبو بكر مما عساه أن يحدث لهما فقال لرسول الله انظر الى هذا العدد الكبير من الأعداء الذين لحقوا بنا فاذا نحن فاعلون أمام هذا الذى يتهددنا ؟ فأجابه الرسول فى غير تردد « مابالك باثنين الله ثالثهما »

* * *

« ان عقيدتى عن عدم العنف هى أنها قوة ايجابية الى أقصى حد ، وليس فيها مكان للجبناء بله الضعفاء . ومازال هناك أمل فى أن يصبح الرجل الضعيف يوما ما مبرأ من العنف ، أما الجبان فلا أمل له على الأطلاق ... فاذا لم نعرف كيف نذود عن أنفسنا

وعن نسائنا ، وعن بيوت عباداتنا بالقدرة على احتمال العذاب ، أى بعدم العنف ، فعلينا على الأقل ، إذا كنا رجالا ، أن نكون قادرين على الذود عن هؤلاء جميعا بالقتال »

* * *

ما أشبه الوسيلة بالحبة ، والغاية بالشجرة ، فان ما بين الغاية والوسيلة من صلة لاتنفصم مثله تماما مثل ما بين الحبة والشجرة من صلة وثيقة »

* * *

« الأديان ان هى الا طرق مختلفة تؤدى إلى نفس الغاية ، فماذا يهم اذا اختلفت بنا الطرق مادمنا نصل الى نفس الهدف ؟ »

* * *

« نحن لانملك التحكم فى النتائج ـ كل مانملكه أن نعمل ونجاهد »

(بقية المختارات من عبارات غاندى فى صفحتى ٦٢ ، ٦٣)



غاندى يسير فى خطوات ثابتة فى إحدى مسيراته التى لم تتوقف أبدا ليدخل السكينة والعزاء على قلوب الجماهير ويستحثهم على العمل فى كفاحه المبرأ من العنف ضد الحكم البريطانى

غَانْدِي

لأمير الشعراء أحمد شوقي

أنشأها تحية للزعيم الهندي المشهور حين مروره بمصر سنة ١٩٣١ وهو في طريقه للمؤتمر المائدة المستديرة بلندن

بَنِي مِصرَ ارفعُوا الغَارَ ... وَحيُّوا بَطَلَ الهِنْدِ
وَأدُّوا وَاجِبًا واقضوا ... حقوقَ العَلَمِ الفَرْدِ
أخوكم في المقاساةِ ... وَعَرْكِ الموقفِ النكْدِ
وفي الموقعةِ الكبرى ... وفي المطلبِ والجُهْدِ
وفي الجرحِ وفي الدمعِ ... وفي النفيِ من المَهْدِ
وفي الرحلةِ للحقِ ... وفي مَرْحلةِ الوَفْدِ
قفوا حَيُّوهُ عَن قربٍ ... على الفُلْكِ، وَعن بُعْدِ
وَغطوا البرَّ بالآسِ ... وَغطوا البحرَ بالوَرْدِ

...

على إفريز (راجبُوتا ... نَ)[1] تمثالٌ مِنَ المَجْدِ
نَبيٌّ مِثلُ (كونفوشيو ... سَ) أو مِن ذلكَ العَهْدِ
قريبُ القولِ والفِعلِ ... مِنَ المنتظَرِ المَهْدي
شَبيهُ الرُّسْلِ في الذَّوْدِ ... عن الحَقِ وفي الزُّهْدِ
لقد عَلَّمَ بالحَقِ ... وَبالصبرِ وَبالقصْدِ
وَنادَى المشرقَ الأقصى ... فَلبَّاهُ مِنَ اللحْدِ
وَجاءَ الأنفسَ المَرضَى ... فَداواها مِنَ الحِقدِ
دَعا الهندوسَ وَالإسلا ... مَ لِلأُلفةِ والوُدِّ
بسحرٍ من قوى الروحِ ... حوى السيفَينِ في غِمْدِ
وَسُلطانٍ مِنَ النفسِ ... يُقوِّي رَائضَ الأُسْدِ

(١) الباخرة التي أقلت غاندي من الهند إلى لندن



وَتوفيقِ مِن اللهِ ... وَتيسيرٍ مِن السَعدِ
وَحظٍ ليسَ يُعطاهُ ... سِوَى المخلوقِ للخُلدِ
وَلَا يُؤخذ بالحَولِ ... وَلَا الصَولِ وَلا الجُندِ
وَلَا بالنَسلِ وَالمالِ ... وَلَا بالكَدحِ وَالكَدِّ
وَلَكِن هِبَةَ المَولَى ... تعالَى اللهُ-للعَبدِ!

•••

سَلامُ النيلِ يَاغاندِي ... وَهذا الزهرُ مِن عِندِي
وَإجلالٌ مِن الأهرا ... مِ وَالكَرنَكِ وَالبَردِي
وَمن مَشيخَةِ الوَادِي ... وَمِن أشبالِهِ المُردِ
سَلامٌ حَالِبَ الشَاةِ ... سَلامٌ غَازِلَ البُردِ
وَمَن صَدَّ عَن المِلحِ ... وَلَمْ يُقبِل عَلَى الشهدِ
وَمن يَركبُ سَاقيهِ ... مِن الهِندِ إلَى السِندِ
سَلامٌ كلمَا صَليتَ عُريَانَا وفى اللبدِ
وَفى زاويةِ السِجنِ ... وَفى سِلسلةِ القَيدِ

•••

من المائِدةِ الخَضرَا ... ءِ(1) خُذ حِذرَكَ يَاغاندِي
وَلاحِظ وَرَقَ "السِيرِ" ... وَمَا فِى وَرَقِ "اللُوردِ"
وَكُن أبرَعَ مَن يَلعَبُ بالشطرَنجِ وَالنَردِ
وَلَاقِ العَبقَرِيِّينَ ... لِقَاءَ النِدِّ للنِدِّ
وَقُل هَاتوا أفَاعِيكم ... أتَى الحَاوِى مِن الهِندِ
وَعُدْ لم تحفلِ الذامَ ... وَلمْ تَغتَرَّ بالحَمدِ
فهذا النَجمُ لا ترقَى ... إلَيهِ هِمّةُ النَقدِ
وَرُدَّ الهندَ للأمَّةِ من حَدٍّ إلَى حَدِّ

(1) يشير إلى المؤتمر الذى كان مسافراً إليه للبحث فى دستور الهند

تقـــديم

لما ولد غاندى كان الحكم البريطانى قد ثبت أقدامه فى الهند . بل ان الثورة التى اجتاحت البلاد ضد البريطانيين فى سنة ١٨٥٧ وعرفت بحركة « العصيان » لم تلبث أن انقلبت وبالا على البلاد ولم يكن لها أثر سوى دعم المغامرة البريطانية فى الهند وتحويلها الى امبراطورية . ومنذ ذلك الوقت أصبحت الهند بالفعل بلدا يخضع لوصاية بريطانيا ، حتى أن الجيل الصاعد من المثقفين من أبناء الهند ، بدلا من أن يحنقوا على الحكم البريطانى ويقاوموه ، أضحوا حريصين على تقبل « رسالة التمدين » التى ادعاها أسيادهم الأجانب لأنفسهم . وهكذا أصبح الاستعباد الفكرى والأدبى سندا يقوّى المهانة السياسية ويشد من أزرها ، وبدت الامبراطورية البريطانية فى الهند وكأنها قد أمنت من تصاريف الزمن لعدة أجيال قادمة

ولما مات غاندى كانت الهند ، التى حزنت على موته أشد الحزن ، هندا حرة ، استرد شعبها تراثه بعد حرمان ، واكتشفت « ملايينه الخرساء » أن لها صوتاً مدويا . نعم فلقد انتصر الشعب الأعزل فى معركة عظيمة استطاع خلالها أن يفجر قوة أدبية كبيرة اجتذبت اليها أنظار العالم وحظيت باعجاب الكثيرين . وإن قصة هذه المعجزة لهى فى الواقع قصة حياة غاندى نفسه ، فاليه يرجع الفضل ، أكثر من أى رجل آخر ، فى احداث هذه المعجزة ، ولهذا فلم يكن عبثا أن أسماه مواطنوه ، اعترافاً منهم بجميله عليهم ، ومازالوا يسمونه ، « أبا الشعب »

ومع ذلك فمن المبالغة ، ولا شك ، أن يقال إن غاندى وحده هو الذى أحدث هذه المعجزة ، فما من فرد فى العالم ، مهما كانت عظمته أو صفاته ، يمكن أن ينسب اليه وحده الفضل فى مثل هذا الحدث العظيم ، فلقد سبق غاندى عدد كبير من القادة وأولى الرأى ، ومن معاصريه المخضرمين ، استطاعوا بجهدهم واخلاصهم أن يمسكوا بمعاولهم وأن يكسروا الأحجار التى ساعدت غاندى على تمهيد طريق الاستقلال ، وكان لهم الفضل فى تحريك النزعات الفكرية والاجتماعية والأدبية الكامنة فى الشعب الهندى ، فاستطاعت عبقرية غاندى أن تحشدها جميعاً ، وأن تدفع بها فى مسيرة شعبية كبرى . نخص بالذكر من هؤلاء ، على

سبيل المثال لا على سبيل الحصر، راجا راماهون روى ، وراما كريشنا باراما همسا وتلميذه العظيم سوامى فيفيكاناندا ، وسوامى ديانانند ساراسوآتى ، ودادابهاى ناوروجى ، وبدر الدين طيابجى ، وسيد احمد خان ، ورانادى ، وجوكهال ، وتيلاك ، وأورو بندو بوش ، ورابندرانات تاجور، فلقد استطاعوا ، كل منهم فى ميدانه الخاص ، أن يذكوا فى الناس الاهتمام بمصائر البلاد وأن يولدوا فيهم روح التضحية التى لم تكد تنتقل الى يد غاندى حتى جعل منها أداة لنهضة سياسية وأخلاقية لم يسبق لها مثيل . ولو أن غاندى ولد قبل ذلك بمائة سنة لما استطاع أن يفعل كل ما فعل ، ومع ذلك فمن الحق أن نعترف فى الوقت نفسه بأنه لولا غاندى لكان مصير الهند السياسى مختلفا كل الاختلاف، ولما توفرت للهند هذه القامة الأدبية المديدة .

وإذا كان غاندى قد عاش فى الهند ، وجاهد من أجل حريتها ، واحتمل فى سبيل ذلك ما احتمل ، ثم مات أخيراً فيها ، فان حياته لم تقتصر فى أهميتها ومغزاها على الهند وحدها ، وستظل الأجيال القادمة تذكره ، لا لأنه كان وطنيا وسياسيا نجح فى بناء الشعب من جديد ، فحسب ، بل كذلك لأنه كان قوة أدبية عظيمة احتكم الى ضمائر الناس فى كل مكان فأصبح بذلك شخصية عالمية ، فلقد ظل غاندى صديق الانسان وخادمه ، بوصفه انساناً يتجه بقلبه ومشاعره الى اخوانه فى الانسانية ، لا بوصفه منتميا الى هذا الشعب أو ذاك ، أو الى هذا الدين أو هذا الجنس . واذا كان قد عمل وجاهد من أجل الهنود وحدهم فما ذلك الا لأنه ولد بين ظهرانيهم وعاش بينهم ، ولأن المهانة والمظالم والآلام التى كان يحتملها بنو وطنه أمدته بالحوافز التى ألهمته حكمته الأدبية وأحساسه الأخلاقى ، ومن ثم فان الدروس والعبر المستمدة من حياته خليقة بأن يعيها الناس فى جميع بقاع الأرض ، فهو لم ينشىء مذهبا جديدا ، واذا كان قد عاش على الايمان وبالايمان فهو لم يترك وراءه عقيدة جامدة يختلف عليها الناس من بعده ، ثم هو الى جانب ذلك لم يصف الله بوصف سوى أنه « الحق » ، ولم يرسم طريقاً لبلوغ الحق سوى طريق الاجتهاد الصادق والسعى الأمين ،بوسائل لا تؤذى كائنا حيا . واذن فمن ذا الذى يستطيع أن يدعى غاندى لنفسه إلا إذا ادعاه للبشرية جمعاء ؟

وثمة درس آخر من حياة غاندى على مستوى العالم كله . ذلك أن غاندى لم يولد عبقريا ولم تبد عليه فى سنى حياته الأولى أية هبات لم يشاركه فيها غيره من عامة الناس فى تلك السن ، فلم يكن شاعرا ملهما كرابندرانات تاجور ، ولم تكن له نظرة غيبية مثل ما كان لراما كريشنا باراماهسا ، ولا كان معجزة فى طفولته كما كان شانكارا أو فيفيكاناندا ، كان

مجرد طفل عادى ، شأنه فى ذلك شأن معظمنا ، بل لعله إذا كان هناك ثمة شىء غير عادى فى طفولته فهو خجله الشديد ، وهو عيب لازمه وقتاً طويلا . واذن فما من شك فى أن شيئاً غير عادى كان يكمن فى أعماق روحه ، فلما تفتح انقلب الى عزيمة صلبة امتزجت بما له من حساسية أخلاقية شفافة فجعلت منه هذه الشخصية وان لم يبد منها شىء فى حياته المبكرة . ولذلك فمن حقنا جميعاً أن نستمد الشجاعة والالهام من حياته ، فاذا كان غاندى قد استطاع أن يجعل من نفسه تلك الشخصية فليس ثمة مايحول بين غيره من الناس وبين أن يكون لهم ما كان له .

لقد كانت عبقرية غاندى ، إذا كان لابد لنا من استخدام هذا التعبير ، تتمثل فيما توفر له من طاقة لا حد لها على تحمل الآلام فى سبيل تحقيق دوافعه الأخلاقية والأدبية فى غير هوادة . فلقد كانت حياته كلها سلسلة من المحاولات لاتكل ، وسعيا صادقا فى سبيل الحق لايني ، لا الحق بمعناه السلبي أو المعنوى ، ولكنه الحق الذى يمكن أن يقوم فيما بين الناس من علاقات . وقد استطاع أن يعلو بنفسه خطوة تلو خطوة ، كل خطوة منها لا تزيد على خطوة الرجل العادى ، حتى إذا بلغ الذروة بدا وكأنه أكثر من انسان ، حتى « ان الأجيال القادمة قد تجد من الصعب عليها » على حد قول اينشتاين « أن تصدق أن رجلا كهذا عاش بالفعل بلحمه ودمه ، وأنه كان يمشى بين الناس فوق هذه الأرض » . وإذا كان آخر الأمر قد بدا غير سائر الرجال فمن الخير أن نذكر أنه حين بدأ كان مثله مثل أى رجل آخــر .

هذه بعض الدروس العظيمة المستمدة من حياة غاندى . ومن حسن الحظ أنه سجل بنفسه الأحداث الكبرى فى حياته حتى سنة ١٩٢٠ ، ووصف فى صدق وأمانة التطور الفكرى والأدبى الذى طرأ على مداركه ، ولولا أنه فعل ذلك لتبارى المؤرخون من محبيه ومريديه وهم يؤرخون له ، كل يحاول أن يضفى عليه هبات خارقة عند مولده ويحيطه بهالة منذ طفولته ، وما أصدق تاجور حين أنشد يناجى ربه فيقول « الهى ! كلامك سهل بسيط ، لا كلام أولئك الذين يتحدثون عنك »

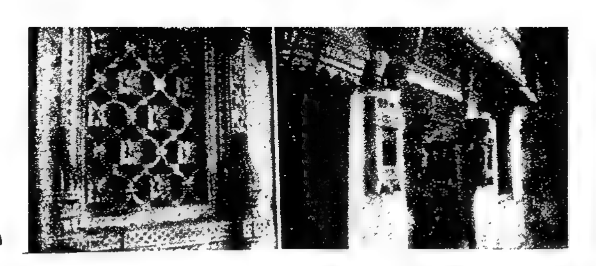
المهاتما غاندى
مولده ونشأته

ولد موهنداس كرمشاند غاندى فى يوم ٢ أكتوبر سنة ١٨٦٩ فى بورباندر ، وهى مدينة صغيرة على شاطىء الهند الغربى ، وكانت وقتئذ إحدى الولايات الصغيرة المتعددة باقليم كاثياوار . وكان غاندى ابنا لعائلة من التجار تنتمى إلى الطبقة المتوسطة . كان جده قد وصل إلى منصب الديوان – أى رئيس الوزراء – فى بورباندر ثم خلفه فى منصبه ابنه كرمشاند أبو موهنداس . أما بوتليباى – أم موهنداس – فكانت لها شخصية القديسين ، رقيقة ، تقية ، فتركت أثرا عميقا فى تفكير ابنها .

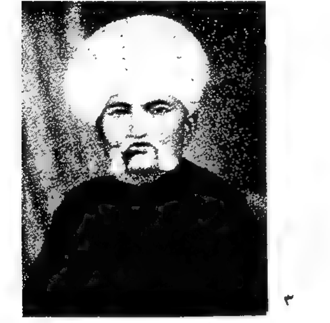
ودرس موهنداس فى مدرسة أطفال فى بوربندر ، وكان من الصعب عليه حفظ جدول الضرب . وقد وصف تلك الفترة فيما بعد قائلا : « لاشك أن فكرى كان بطيئاً وذاكرتى فجة » . وكان فى السابعة من عمره حين انتقلت أسرته إلى راجكوت – وهى ولاية أخرى فى كاثياوار – حيث صار والده ديوانا . وهناك استكمل موهنداس دراسته الابتدائية والتحق بعدها بالمدرسة الثانوية . وكان خلال دراسته – رغم اجتهاده – « طالبا متوسطا » ، كما كان مفرطا فى الخجل .

ومع أنه لم يبد عليه خلال سنى دراسته ما ينبىء بالعظمة التى سيصل إليها فيما بعد إلا أن حادثا وقع له كانت له دلالته . فقد زار مدرسته مفتش بريطانى ليمتحن الطلبة فى هجاء الكلمات . وأخطأ موهنداس فى هجاء إحدى الكلمات ولفت المدرس نظره إليها وطلب منه أن ينقل الهجاء الصحيح للكلمة التى أخطأ فيها من كراسة جاره . ورفض موهنداس ذلك فعنفه مدرسه فيما بعد « لغبائه » .

كذلك تبين فى الصبى ، حتى فى ذلك الوقت ، أثرا لرغبته الملحة فى إصلاح الآخرين وتقويمهم ، التى أصبحت فيما بعد صفة بارزة فى شخصية المهاتما ، وإن كانت هذه الرغبة فى هذه الحالة قد قادته بعيدا عن ضالته . فقد كان مصرا على تقويم صديق لأخيه الأكبر اسمه الشيخ مهتاب . فأخذ ينمى صداقته به ولكنه أخذ عنه عادات ندم عليها فيما بعد . فقد أقنعه ذلك الصديق أن البريطانيين قادرون على حكم الهند لأنهم يأكلون اللحم ، مما يضفى عليهم القوة اللازمة . وأخذ موهنداس – وهو سليل أسرة نباتية عريقة – يأكل



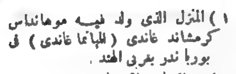
١



٣



٢



١) المنزل الذى ولد فيــه موهانداس كرمشاند غاندى (المهاتما غاندى) فى بوربا ندر بغربى الهند .

٢) بوتالى با ، والدة غاندى .

٣) كرمشاند غاندى ، والده

٤) كليــة سامالداس ببهافناجار حيث تلقى موهانداس الصغير تعليمه

٥) موهانداس غانــدى وهو فى السابعة عشرة

٤



٥



اللحم سراً ، لأسباب وطنية . ولكن شعوره بالإثم لتلك الوجبات التي كان يخفيها عن والديه جعله يقلع عن هذه التجربة بعد قليل وهو يقول مطمئنا نفسه : « حينما يرحلان عن هذه الدنيا سأعثر على حريتي وسآكل اللحم في العلن » .

وتزوج وهو بعد في المدرسة الثانوية - في الثالثة عشرة من عمره - من كاستورباي ، وكانت في نفس السن . كان الزواج في نظر صبي في تلك السن مجرد عدد من الولائم ، وملابس جديدة ، وزميلة جديدة وهادئة يلعب معها . ولكنه سرعان ما شعر بالدوافع الجنسية التي وصفها لنا بصراحة رائعة . ولعل رقته البالغة واحترامه الشديد اللذين ميزا موقفه تجاه النساء الهنديات فيما بعد مدينان إلى حد ما لتجربته الشخصية لما كان يسميه « تقليد زواج الأطفال القاسي » .

شبابه ودراسته في انجلترا

التحق موهنداس - بعد تخرجه من المدرسة الثانوية - بكلية سامالداس في بهافناجار حيث وجد الدراسة صعبة والجو لا يناسبه . وكان والده قد توفي في سنة ١٨٨٥ . واقترح أحد أصدقاء الأسرة أنه إذا كان غاندي الصغير يريد أن يخلف والده في خدمة الولاية فمن الأفضل ان يحصل على شهادة في المحاماة في ثلاث سنوات من انجلترا . وراقت غاندي الفكرة كثيرا واستطاع أن يتغلب على معارضة أمه بأن أقسم لها في جدية وصدق أنه لن يمس الخمر أو النساء أو اللحوم .

وذهب غاندي إلى بومباي ليستقل السفينة إلى انجلترا . وفي بومباي أنذره بعض رفاقه في المذهب الديني - الذين كانوا يعتبرون عبور البحر نوعا من التلوث - بطرده من طائفته الدينية ان هو أصر على السفر . ولكن غاندي كان مصمماً ، فطردوه من مذهبهم . وأبحر غاندي في ٤ سبتمبر سنة ١٨٨٨ إلى سوثهامبتون ، وكان في الثامنة عشرة من عمره ، وكانت كاستورباي قد أنجبت له ولدا قبل ذلك بشهور قليلة .

كانت أيامه الأولى في لندن مليئة بالشقاء . قال عنها فيما بعد : « كنت أفكر باستمرار في منزلي وبلدي . . . كان كل شيء غريبا - الناس وعاداتهم ، حتى بيوتهم . وكنت جاهلا كل الجهل بآداب السلوك الإنجليزية ، لهذا كان علي أن أكون حذرا طول الوقت .

وكانت هناك أيضاً مشكلة قسمى ألا آكل إلا الخضر . وحتى الأصناف التى كان يمكننى أن آكل منها كانت بلا طعم » .

وقد استطاع أن يحل مشكلة الطعام عندما وجد بالمصادفة مطعما نباتيا فى شارع فارنجدون ، عثر فيه كذلك على كتاب لسولت عنوانه « دفاع عن النباتية » فاشترى نسخة منه تأثر بها كثيرا . فحتى ذلك الوقت كان نباتيا لأنه كان قد أقسم على ذلك ولكنه بعد ذلك صار نباتيا باختياره . وقرأ بعد ذلك كتبا عديدة عن النباتية والعلاج بالطعام وأسعده أن يكتشف أن العلم الحديث يؤكد صحة تقاليد أجداده . ومنذ ذلك الوقت أخذ يهتم بنشر النباتية .

ومر غاندي خلال الفترة الأولى من إقامته فى انجلترا بمرحلة وصفها فى عبارته بأنها كانت « فترة تقليد للجنتلمان الإنجليزى » . فقد فصل ملابس جديدة له واشترى قبعة حريرية عالية كلفته تسعة عشر شلنا و « أنفق عشرة جنيهات اخرى على بذلة للسهرة صنعت فى بوند ستريت » واقتنى سلسلة ساعة مزدوجة من الذهب وأخذ دروسا فى اللغة الفرنسية والنطق الصحيح للكلمات وأنفق ثلاثة جنيهات ليتعلم الرقص . ولكنه سرعان ما أدرك ـ وهنا تظهر بوادر شخصية غاندى ـ أنه إذا لم يكن فى استطاعته أن يصير جنتلمانا عن طريق شخصيته فلا فائدة ترجى مما يفعل .

وقبل نهاية عامه الثانى فى لندن ، تعرف على أخوين من الثيوصوفيين عرفاه بترجمة وضعها السير ادوين ارنولد بالشعر الإنجليزى لكتاب الجيتا ـ الانشودة السماوية ـ وتأثر غاندى كثيرا بالكتاب.قال : « بدا لى أنه كتاب لايقدر بثمن. وقد نمى فكرى عن الجيتامنذ ذلك الوقت حتى أنى أعتبره اليوم أعظم الكتب لمعرفة الحق... نعم فلقد كان عونا كبيرا لى فى أوقات البؤس » .

وفى نفس الوقت تقريباً عرفه صديق مسيحى كان قد قابله فى بنسيون نباتى بالإنجيل فوجد من الصعب عليه أن يتعمق فى العهد القديم إذ كان يسبب له نعاسا . ولكنه أحب العهد الجديد وخاصة موعظة الجبل . كذلك قرأ حياة بوذا كما كتبها سير ادوين ارنولد تحت عنوان « ضوء آسيا » والفصل الخاص بنبى الإسلام فى كتاب كارلايل « الأبطال وعبادة الأبطال » ... هكذا كان احترام غاندى للأديان ورغبته فى فهم خير ما جاء فى كل منها فتأصل كل ذلك فى نفسه منذ شبابه .

ولما نجح غاندى فى امتحاناته صار محاميا فى ١٠ يونيو سنة ١٨٩١ وأبحر عائدا إلى الهند بعدها بيومين .

على عتبة الرجولة

حينما وصل غاندى إلى بومباى علم ـ بأسى عميق ـ أن امه قد ماتت ، وكان النبأ قد منع عنه عمدا ليجنبه الحزن وهو فى أرض غريبة بعيدة .

وأقام مدة قصيرة فى راجكوت قام خلالها ، بجده المعتاد ، بعمل الترتيب اللازم لتعليم ابنه وابناء أخيه . ومن ثم فقد قرر أن ينشىء مكتبا لمباشرة المحاماة فى بومباى . وأقام فى بومباى عدة شهور حتى أتته قضيته الأولى ، وكانت قضية بسيطة ، لكنه حينما وقف ليتكلم عن موكله فى المحكمة خانته شجاعته فلم ينطق بكلمة واحدة .

فلما فشل غاندى فى الاستقرار فى بومباى ، عاد إلى راجكوت حيث بدامن جديد ولكنه لم يحرز كثيرا من التقدم ، وكان تعيسا لايستطيع ان يوائم نفسه مع الجو المليء بالمؤامرات والخداع الذى كان سائدا فى ولايات كاثياوار الصغيرة . وبينما هو على هذا الحال جاءه عرض من شركة دادا عبدالله وشركائه بأن يذهب إلى جنوب افريقية نيابة عنهم ليمثلهم فى إحدى القضايا . واعتبر غاندى هذه الفرصة منحة من السماء وأسرع بالسفر إلى جنوب افريقية فى ابريل سنة ١٨٩٣ .

ولم يكن غاندى يتصور ماسيحدث له هناك ، بل كان يتخيل انه سيهرب من وضع غير مناسب فى راجكوت وأنه ـ على كل حال ـ سيربح بعض المال . ولكن القدر كان يعد له شيئا آخر . فنى جنوب افريقية واجهت ذلك الشاب الخجول الهادىء ذا الأربع والعشرين ربيعا قوى أرغمته على أن يستكشف الينابيع الروحية التى تكمن بداخله وعلى ان يحول الكوارث إلى تجارب روحية خلاقة .

وصل غاندى مرتديا زداءه التقليدى الطويل وعمامته إلى ديربان فوجد عميله عبدالله شيث فى انتظاره . وكان اول ما أحس به عند وصوله جو التفرقة العنصرية المرهق ، وكان الهنود ـ الذين كان يستوطن عدد كبير منهم جنوب افريقية حيث يعملون بالتجارة وبعض الأعمال الفنية وأعمال التراحيل ـ ينظر إليهم المستوطنون البيض باحتقار



المهاتما غاندى وهو طالب يدرس القانون فى انجلترا (سنة ١٨٨٨) ، ومع أنه أصبح محامياً بعد تخرجه فلم يكن محامياً ناجحاً ، ففى أولى قضاياه اعترته حالة عصبية عقدت لسانه فلم يكد ينطق بكلمة ولكنه مع ذلك استطاع أن يدافع عن قضية العدالة والمساواة بين الناس جميعاً أمام أعلى المحاكم : محكمة الضمير الانسانى

ويعتبرونهم « منبوذين » ويطلقون عليهم اسم « العمال الاجراء » . وهكذا كان الطبيب الهندى يسمى « طبيبا أجيرا من الشرق » كما سمى غاندى كذلك محاميا أجيرا .

وبعد حوالى اسبوع من إقامته فى ديربان سافر غاندى إلى بريتوريا عاصمة الترانسفال حيث كانت القضية تتطلب وجوده هناك . وكان موكله قد اشترى له تذكرة بالدرجة الأولى . ووصل القطار إلى ماريتزبرج ـ عاصمة ناتال ـ فى حوالى التاسعة مساء وصعد إلى القطار رجل أبيض اعترض على وجود « رجل ملون » بالدرجة الأولى. فأمر موظفو السكك الحديدية غاندى بأن ينتقل إلى الدرجة الثالثة ، وحينما رفض ذلك دفعه كونستابل خارج القطار وأنزل متاعه . كان الوقت شتاء والجو شديد البرودة ، واضطر غاندى إلى أن يجلس طول الليل فى غرفة الانتظار بالمحطة يفكر « هل اقاتل فى سبيل حقوقى أم أعود إلى الهند ؟ » وقرر أخيرا أن من الجبن أن يهرب عائدا دون أن يؤدى واجبه .

وواصل غاندى رحلة القطار فى الأمسية التالية بلا أحداث أو متاعب . ولكن مأساة أكبر كانت تنتظره فى الرحلة من شارلزتاون إلى جوهانسبرج فى عربة تجرها الجياد . فقد أجلسوا غاندى إلى جانب السائق خارج العربة بينما جلس الكمسارى الأبيض بالداخل مع سائر الركاب. وابتلع غاندى الاهانة حتى لاتفوته العربة . وفى الطريق وضع الكمسارى قطعة قذرة من قماش الركائب عند موطىء الأقدام فى الجزء المكشوف من العربة ، وأمر غاندى أن يجلس عليها وأن يعطيه كرسيه إلى جانب السائق حتى يدخن فلا يزعج باقى الركاب داخل العربة. ورفض غاندى أن يترك مكانه ، فسبه السائق وانهال عليه ضربا وهو يحاول أن يلقيه خارج العربة . وأمسك غاندى بمسندى الكرسى المصنوعين من النحاس رافضا التسليم أو الرد على الضرب بمثله . واحتج بعض الركاب على عدوان السائق الظالم فاضطر السائق إلى أن يقلع عن ضرب غاندى الذى بقى فى مقعده حتى نهاية الرحلة .

ومع أن مهمة غاندى الأساسية فى بريتوريا كانت مراعاة القضية التى جاء من أجلها فقد أيقظت فيه هذه التجربة الشخصية الاحساس بأهمية العدالة الاجتماعية ، بقدر ما أيقظها كذلك ما رآه من إهانات مستمرة لمواطنيه فى جنوب افريقية . ولهذا فقد قام بعدة اتصالات مبدئية للدعوة إلى اجتماع للجالية الهندية فى بريتوريا ـ وكانت تتألف أساسا من التجار المسلمين ـ وأهاب فى ذلك الاجتماع بمواطنيه أن يراعوا الأمانة فى كل شىء ، وفى كل أعمالهم، وذكرهم بأن مسئوليتهم كبيرة ، خاصة وأن الناس سيحكمون على وطنهم بتصرفاتهم وهم فى بلد غريب . كما طلب منهم أن يتناسوا خلافاتهم الدينية والطبقية وتقاليدهم غير الصحية

واقترح أن يكونوا جمية لترعى مصالح المستوطنين الهنود ، وعرض عليهم خدماته مجانا فى أوقات فراغه .

أما وضع الهنود فى الترانسفال فقد كان أسوأ من وضعهم فى ناتال ، فقد كان عليهم أن يدفعوا ضريبة على الرؤوس قدرها ثلاثة جنيهات لكل فرد . ولم يكن يسمح لهم بامتلاك ارض إلا فى أماكن معينة . كذلك لم تكن لهم حقوق دستورية فكان لا يسمح لهم بالسير فى الشارع أو الخروج من منازلهم بعد التاسعة مساء إلا بتصاريح خاصة . وفى إحدى الليالى كان غاندى ـ وكان قد حصل على تصريح من المدعى العام بالخروج فى الأماكن العامة فى جميع ساعات الليل والنهار ـ يسير بجوار منزل الرئيس كروجر عندما دفعه الشرطى الذى يقف هناك عن الرصيف وأسقطه فى الشارع وهو يركله . وتصادف مرور أحد أصدقاء غاندى فى ذلك الوقت ـ وهو انجليزى من جماعة الكويكر اسمه مستر كوتس ـ فرأى ماحدث وطلب من غاندى أن يرفع المسألة إلى القضاء مبديا استعداده للشهادة ولكن غاندى رفض قائلا إنه قد سن مبدأ لنفسه وهو ألا يلجأ إلى القضاء فيما يخصه شخصياً .

وفى الوقت نفسه كان غاندى مستمرا فى إجراءات القضية وكان قد اكتسب بعض الخبرة القانونية ، كما اكتشف عاملين هامين ، أولهما أن الحقائق هى ثلاثة أرباع القانون ، وثانيهما أن الروتينات القانونية الطويلة قد تضر بمصالح الخصمين معا ، وأنه من واجب المحامى أن يحاول الوصول إلى اتفاق بينهما خارج قاعة المحكمة . وتمكن غاندى فعلا من اقناع الخصمين فى القضية ـ عبد الله شيث وخصمه طيب شيث ـ بقبول التحكيم .

وبعد أن أتم غاندى مهمته فى بريتوريا عاد إلى ديربان واستعد للعودة إلى وطنه ولكن أحد الحاضرين فى حفل الوداع الذى أقيم له لفت نظره إلى خبر نشر فى جريدة « ناتال ميركيورى » مؤداه أن حكومة ناتال تعد قانونا للحد من حرية الهنود ، وادرك غاندى خطورة مشروع القانون الجديد فقال : « هذا أول مسمار يدق فى نعشنا » وأهاب بمواطنيه أن يقاوموه . ولكنهم أكدوا له ضعفهم من غيره ورجوه أن يبقى شهرا آخر ، فوافق ، ولم يكن يدرى أن ذلك الشهر سيمتد إلى عشرين عاما .

وبطبيعته الجادة الواقعية حول غاندى حفل الوداع إلى اجتماع للجنة عمل وكتب نداء لمجلس ناتال التشريعى ، وسرعان ماتطوع عدد من الموجودين لنسخ البيان وجمع التوقيعات عليه ، كل ذلك فى نفس الليلة . وقد لفت البيان نظر الصحافة فى الصباح فتحدثت عنه ولكن المجلس وافق على القانون . وأسرع غاندى بكتابة التماس موجه إلى اللورد ريبون وزير

الدولة لشئون المستعمرات جمع عليه عشرة آلاف توقيع في خلال شهر وأرسل الالتماس إلى لندن كما طبعت منه آلاف النسخ لتوزيعها ... واعترفت الصحف البريطانية - حتى جريدة التايمز - بعدالة قضية الهنود ، كما أدرك الشعب في الهند نفسها للمرة الأولى المتاعب التي يلقاها مواطنوهم في جنوب افريقية .

وأصر غاندي على أنه إذا مد اقامته في جنوب افريقية ، فهو لن يقبل مكافأة على نشاطه العام . ولما كان مضطرا إلى أن يعيش في المستوى اللائق بالمحامي وكان محتاجا إلى ثلاثمائة جنيه لتغطية نفقاته فقد سجل اسمه كمحام أمام محكمة ناتال العليا .

تفتح القداسة في غاندي

اقتنع غاندي بعد ثلاث سنوات من إقامته في جنوب افريقية بأنه لا يمكنه أن يهجر قضية تبناها طوال هذه المدة بحرارة وحماس . ولذلك فقد أخذ أجازة مدتها ستة أشهر يعود فيها إلى الهند لاحضار أسرته . ولكنها لم تكن أجازة بالمعنى الصحيح فقد قضاها متجولا في مدن الهند في محاولات لاقناع الصحف والشخصيات ذات النفوذ بسوء أوضاع الهنود في جنوب أفريقية ، كما طبع كتيبا صغيرا عن المشكلة . ومع أن هذا الكتيب كان يتضمن شرحا بسيطا ومركزا للمشكلة فان موجزا محرفا له وزعته وكالة رويتر للأنباء أدى إلى سوء تفاهم كبير في ناتال وكانت له نتائج وخيمة فيما بعد .

وحينما انتشر وباء الطاعون في راجكوت ، تطوع غاندي للاسعاف والإغاثة وزار المناطق الموبوءة - ومن ضمنها مساكن المنبوذين - ليتفقد المراحيض ويوجه السكان إلى وسائل صحية أفضل .

وخلال هذه الزيارات تعرف بقادة مخضرمين من قادة الهند مثل بدر الدين طيابجي ، وفيروزشاه مهتا ، وسورندرانات بانرجي ، والعالم الوطني الكبير تايلاك . كما قابل جوكهال الحكيم ، ذا القلب النبيل ، الذي جذبه اليه بشخصيته المحببة . وتحدث غاندي كذلك في اجتماع شعبي كبير في بومباي وكان من المقرر أن يتحدث في اجتماع شعبي آخر في كلكتا ولكن برقية عاجلة تلقاها من ناتال جعلته يقطع إقامته في الهند ليبحر إلى دربان في نوفمبر سنة ١٨٩٦

وحينما وصلت السفينة إلى دربان وضعت في الحجر الصحي خمسة أيام - وكان

المستوطنون البيض الذين ألهبتهم الأنباء المشوهة عن نشاط غاندى فى الهند والاشاعات التى تقول إنه قد أحضر معه ملء سفينة من الهنود ليقيموا فى ناتال يهددون باغراق جميع ركاب السفينة . ولكن الركاب ـ ومنهم غاندى واسرته ـ نزلوا جميعا فى سلام . ولكن ما كاد غاندى يخرج إلى الشارع ويتعرف عليه الناس حتى تجمعت جماعة معادية له وهاجمته بالأحجار ثم بالضرب والركل وكان من المحتمل أن يقتل غاندى لو لم تنجده سيدة إنجليزية بشجاعة.

وسرت أنباء هذا الاعتداء المخزى وانتشرت حتى أن جوزيف تشيمبرلين ـ وزير الدولة لشئون المستعمرات ـ أرسل برقية إلى ناتال يأمر فيها بمحاكمة جميع الذين اشتركوا فى الاعتداء على غاندى وحاولوا شنقه . ولكن غاندى رفض أن يدل على الذين هاجموه أو أن يرفع شكوى ضدهم قائلا إنه متأكد أنهم قد غرر بهم وأنهم حينما يعرفون الحقيقة سيندمون على مافعلوا . هكذا تحدثت القداسة الكامنة فيه.

وفى خلال إقامته للمرة الثانية فى جنوب افريقية تغيرت طريقة حياة غاندى تدريجيا . فبينما كان من قبل حريصا على المحافظة على المستوى اللائق بالمحامى البريطانى ، أخذ بطريقته المستحدثة يقلل من مطالبه ونفقاته ، فتعلم «فن الغسيل» وصار يغسل ملابسه بنفسه ، وصار يعرف كيف يضع النشاء فى ياقاته قبل كيها ، كما تعلم أن يقص شعره بنفسه وأن ينظف وعاء الفضلات الخاص به وتلك الخاصة بضيوفه . ولم يقنع غاندى بخدمة نفسه بل تطوع ، رغم زحمة عمله كمحام ومطالب كفاحه من أجل قضية عامة ، بالعمل ساعتين كل يوم كساعد فى مستشفى خيرى ، كما تولى تعليم ولديه وابن أخيه فى منزله فدرس رعاية الأطفال وألم بطرق الوضع فكان هو الذى ساعد زوجته على وضع ولده الرابع والأخير .

وفى سنة ١٨٩٩ بدأت حرب البوير . ومع أن عواطف غاندى كانت كلها مع البوير الذين كانوا يقاتلون فى سبيل استقلالهم فقد نصح الجالية الهندية بمساندة بريطانيا ، إذ ماداموا يطالبون بحقوقهم كرعايا بريطانيين فان من واجبهم أن يدافعوا عن الامبراطورية حينما تتعرض للخطر . وقام غاندى بناء على ذلك وبمساعدة الدكتور بوث باعداد فرقة طبية من ١١٠٠ من رجال الاسعاف المتطوعين تولى تدريبهم وعرض خدماتهم على الحكومة. وقد قامت هذه الفرقة ، تحت إشراف غاندى وقيادته ، بخدمات جليلة وذكرت أعمالها مرارا فى البرقيات . غير أن ما أسعد غاندى بصفة خاصة هو أن جنود الفرقة على اختلاف عقائدهم وطبقاتهم عاشوا وواجهوا الخطر متكاتفين . فلم يكن هناك مايسعد غاندى طول حياته أكثر من أن يرى الناس يعملون كأخوة متعاونين وقد سموا بأنفسهم فوق خلافات العقيدة والطبقة والجنس .



غاندى وهو محام فى جوهانسبرج (بجنوب إفريقية) سنة ١٩٠٦ ، حيث
أفاض عليه الملونون فى جنوب إفريقية سيلا من « رحيق الحب »

وفى سنة ١٩٠١ ، عند نهاية الحرب ، أحس غاندى بأن عليه أن يعود إلى الهند ، إذ كان يخشى أن يحوله نجاحه المهنى فى جنوب افريقية إلى « جامع للمال » وبصعوبة كبيرة أمكنه أن يقنع اصدقاءه أن يتركوه يرحل بعد أن وعدهم بأن يعود إليهم إذا احتاجت الجالية إليه فى خلال سنة .

وعاد غاندى إلى الهند فى الوقت المناسب كى يشترك فى اجتماع المؤتمر الوطنى الهندى فى كلكتا حيث وافق المجتمعون على القرار الذى قدمه عن جنوب افريقية بمجلس اجماعى . ولكن الاجتماع نفسه خيب أمله فقد شعر بأن السياسيين الهنود يتكلمون كثيرا ويعملون قليلا ، واستهجن اهتمامهم الشديد باستعمال اللغة الانجليزية فى مناقشاتهم كما آلمته الحالة غير الصحية التى كانت عليها دورات المياه فى معسكر الاجتماع .

وبعد أن أقام عدة أيام فى كلكتا ضيفا على جوكهال ، قام غاندى بجولة فى الهند ، سافر خلالها بالدرجة الثالثة حتى يدرس بنفسه عادات الفقراء ومتاعبهم. ولاحظ أن تعب مسافرى الدرجة الثالثة الشديد مرجعه استهانة المسئولين عن السكك الحديدية وكذلك عادات الركاب السيئة نفسها ، واقترح أن يتطوع بعض المثقفين للسفر فى الدرجة الثالثة حتى يتمكنوا من تقويم عادات الناس ويمكنوهم من التعبير عن مطالبهم المشروعة .

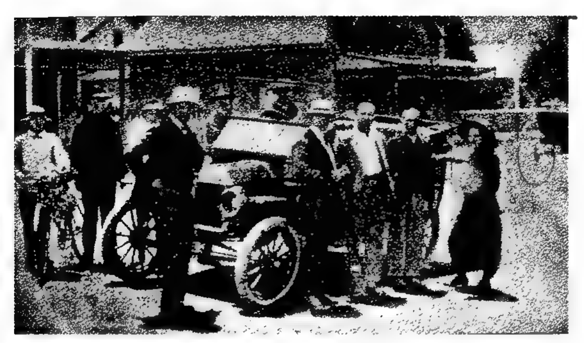
غير أن غاندى لم يكن مقدرا له بعد أن يعمل فى الهند ، فلم يكد يبدأ عمله فى بومباى حتى جاءته برقية من الجالية الهندية فى ناتال تستدعيه ، وكان قد وعدهم بالذهاب إن هم احتاجوا إليه — لذلك ترك عائلته فى الهند وأبحر من جديد .

فلقد استدعى غاندى ليقدم وجهة النظر الهندية لجوزيف تشيمبرلين الذى كان يزور جنوب افريقية فى ذلك الوقت . ولكن وزير المستعمرات ـ الذى كان قد جاء ليتلقى خمسة وثلاثين مليونا من الجنيهات كهدية من جنوب افريقية ـ لم يكن يريد بالطبع أن يفقد عواطف المستوطنين الاوروبيين . ومن ثم فقد فشل غاندى فى اكتساب عطف شيمبرلين كما اكتشف أن الموقف فى الترانسفال قد أصبح نذير شؤم بالنسبة للهنود . لذلك قرر أن يبقى فى جوهانسبرج وسجل نفسه كمحام أمام محكمتها العليا .

ومع أنه بقى خصيصا ليتحدى غطرسة الاوروبيين ويقاوم الظلم فانه لم يحمل أى حقد فى قلبه ، بل كان على العكس دائما على استعداد لمساعدة معارضيه حين يكونون فى حرج . وكان هذا المزيج النادر من الاستعداد لمقاومة الخطأ والمقدرة على حب معارضيه هو الذى حير اعداءه وأرغمهم على احترامه . من ذلك أنه حينما اندلعت ثورة الزولو ، قدم غاندى

خطاب غاندى
الى ليوتولستوى

صورة طبق الاصل لخطاب بعث به غاندى الى ليوتولستوى فى ابريل سنة ١٩١٠ . وقد ارسل غاندى مع خطابه كتيبا ضمنه ترجمة لما كتبه بلغته الجوجيراتية كى يبدى تولستوى رأيه فيها . كانت الحكومة البريطانية قد صادرت الكتاب الأصلى .



غاندى وقد قبض عليه رجال الشرطة فى جنوب إفريقية حين كان يقود مسيرة قوامها ٢٠٠٠ من الملونين فى الترانسفال ، فى حملة من حملات المقاومة السلبية ضد « الحاجز العنصرى » الذى كان يحرم على الملونين دخول الترانسفال دون إذن خاص.

من جديد المساعدة للحكومة بإنشاء فرقة للاسعاف ، كما كان يسعده كثيراً فى الوقت نفسه أن يقوم هو ورجاله بعلاج افراد قبائل الزولو ومساعدة المصابين منهم والموشكين على الموت الذين كان الأطباء البيض ينفرون من لمسهم هم والممرضات .

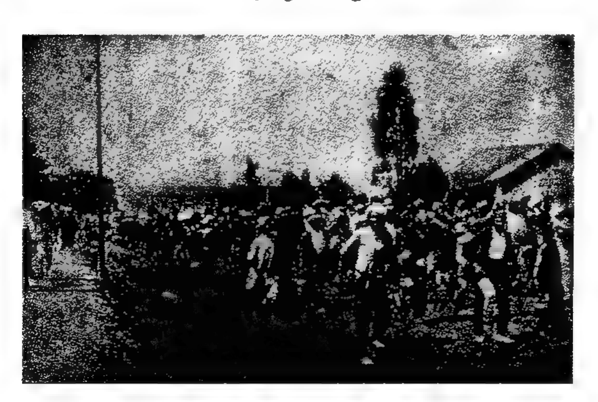
وفى خلال تلك المسيرات الطويلة فى أرض الزولو بدأ غاندى يفكر بعمق فى نوع الحياة التى يرغبها والتى تمكنه من أن يكرس نفسه كلية لخدمة الإنسانية . كان يدرك أن الطهارة الكاملة ـ أى البراهماتشاريا ـ لاغنى عنها فى سبيل تحقيق هذا الهدف لأن الانسان « لا يمكنه أن يعيش بالجسد والروح معا » ومن ثم فقد نذر — بعد عودته مباشرة من حملة الزولو فى عام ١٩٠٦ — أمام جمع من أصدقائه أن يعيش عيشة التبتل .

لقد اتخذ غاندى هذه الخطوة تحت تأثير البهاجوا جيتا التى كان يقرأها بانتظام كل صباح ويحفظها عن ظهر قلب . كذلك تأثر كثيرا بمبدأ آخر من مبادىء الجيتا ، وهو عدم التملك ، وبمجرد أن أدرك غاندى ذلك ترك بوليصة تأمينه وكانت بمبلغ عشرة آلاف روبية تسقط دون أن تستحق الدفع ، واعتمد منذ ذلك اليوم على إيمانه بالله وحده .

كذلك تأثر غاندى بكتاب راسكين « حتى هذه النهاية » . وكان صديقه بولاك قد أعطاه هذا الكتاب ليقرأه فى يوم من أيام سنة ١٩٠٤ . وفى هذا الكتاب يدعو راسكين - أو هكذا فهم غاندى - إلى احترام العمل اليدوى، كما يشيد بجمال الحياة فى مجتمع يقوم على أساس من المساواة . وعلى عكس راسكين كان غاندى لايستطيع أن يؤمن بمثل أعلى دون أن تحدوه الرغبة القوية فى تطبيقه، ولذلك فقد بدأ يفكر فى اقتناء مزرعة يستطيع فيها أن يحيا هذه الحياة . ومن هنا نشأت مستعمرة « فونيكس » على قطعة أرض مساحتها ١٠٠ فدان تبعد أربعة عشر ميلا من ديربان .

على أن غاندى لم يستطع أن يمكث طويلا فى « فونيكس » . فقد دعاه الواجب إلى الرحيل إلى جوهانسبرج وهناك « أيضاً » أقام مزرعة على نفس النمط على مسيرة ٢١ ميلا من المدينة أطلق عليها اسم « مزرعة تولستوى » وفى كلتا المزرعتين كان النزلاء يقومون بكل الأعمال بأنفسهم، من الطهو إلى التنظيف، وكانت البساطة فى المعيشة تتجلى فى كل شىء، مع نظام صارم فى التريض الجسمانى والروحى . ولم يستعمل أحد من النزلاء أى نوع من الأدوية . فقد كان غاندى يعتقد اعتقاداً راسخاً فى العلاج الطبيعى وقد تولد هذا الاعتقاد عنده بعد أن قرأ كتاب أدولف « العودة إلى الطبيعة » . كذلك كان على كل نزيل أن يمارس بعض الحرف، وقد تعلم غاندى أن يصنع الصنادل بنفسه .

المسيرة إلى الترانسفال . لقد بدا « هؤلاء الأبطال المتواضعون جماعة رائعة حقا . كانت أجسامهم نحيفة إلى درجة الهزال ولكن الطريقة التى كانوا يمشون بها والمصاعب التى صادفوها كانت تحكى قصة أخرى - قصة كفاح الانسان فى سبيل المساواة والحرية » .



وقد تنبأ غاندى بأنه لا مفر من حدوث مواجهة مع حكومة جنوب افريقية ان عاجلا أوآجلا . وقد أدرك من خلال تجاربه الشخصية أنه مامن قوة جبروتية تستطيع أن تهزم روح إنسان على استعداد للتحدى والتضحية ، وأن مايستطيع واحد من الناس أن يؤديه من الأعمال يمكنه أن يدرب غيره على أدائه . وكان يدرك أن المقاومة الفردية يمكن أن يتسع نطاقها كما يمكن تنظيمها فى صورة نضال جماعى . لقد قرأ أعمال تولستوى وثورو وكان سعيداً بأن يرى أن هذه الأعمال كانت تعكس إلى حد ما الأفكار التى كانت تراوده . أما تعبير ثورو عن « العصيان المدنى » فلم يبد لغاندى معبراً عن فكرة الـ « احسا » أو عدم العنف كقوة إيجابية من قوى الحب ، كما أن استخدام عبارة « المقاومة السلبية » لم ترقه . لقد أصبحت الفكرة واضحة فى ذهنه الآن كل الوضوح ولكن كانت تعوزه الكلمة الصحيحة للتعبير عن هذه الفكرة . وقد اقترح ابن عمه مادانلال غاندى استخدام كلمة «سادا جراها» وتعنى التمسك بالحقيقة . وأحب غاندى هذا التعبير ولكنه غيره إلى كلمة « ساتيا جراها » ومن هنا نشأت أكثر آراء غاندى اصالة فى العمل السياسى .

وسرعان ماواتته الفرصة . ففى عام ١٩٠٧ ، عندما قامت حكومة مسئولة فى الترانسفال ، أصدرت ما عرف فيما بعد «بالقانون الأسود» الذى كان يلزم جميع الهنود ، رجالا ونساء ، بأن يسجلوا اسماءهم وبصماتهم . وقد نصح غاندى الجالية الهندية بألا ترضخ لهذا الامتهان وأن تتحدى القانون حتى ولو كان ذلك يعنى دخول السجن . وفى يناير سنة ١٩٠٨ قبض على غاندى وصدر الحكم عليه بالسجن شهرين . وسرعان ما تبعه إليه كثيرون من أتباعه المؤمنين بالساتياجراها .

وقبل أن تنقضى فترة السجن أرسل الجنرال سمطس برسول إليه يقترح عليه انه إذا قبل الهنود أن يسجلوا أنفسهم طواعية فإنه ــ أى الجنرال ــ يعد بإلغاء ذلك القانون . ووافق غاندى على ذلك الحل الوسط ، فقد كان دائماً يؤمن بالثقة فى العدو . ولكن الهنود الآخرين لم يكونوا على استعداد للثقة فى عدوهم . وقد ذهب واحد من البطهانيين فى ذلك إلى حد اتهام غاندى بخيانتهم وتهديده بالقتل إذا قام بتسجيل نفسه . وفى اليوم الذى خرج فيه غاندى ليسجل نفسه اعترض طريقه عدد من البطهانيين واعتدوا عليه بالضرب ، وعندما أفاق وعلم أن الذين اعتدوا عليه قد قبض عليهم أصر على إطلاق سراحهم .

وقد قام غاندى بتسجيل نفسه ولكن كم كانت خيبة أمله عندما تراجع سمطس عن وعده ورفض الغاء القانون . فما كان من الهنود إلا أن أحرقوا شهادات التسجيل الخاصة بهم وصمموا على تحدى الحظر الذى كان قائماً على الهجرة إلى الترانسفال . وسرعان

ما امتلأت السجون ، وقبض على غاندى للمرة الثانية فى سبتمبر سنة ١٩٠٨ حيث حكم عليه بالسجن شهرين مع الأشغال الشاقة . ومع ذلك فلم يتوقف الكفاح . وفى فبراير سنة ١٩٠٩ قبض على غاندى للمرة الثالثة وحكم عليه بالسجن ثلاثة أشهر مع الأشغال الشاقة . ولم يدع غاندى وقته فى السجن يمضى سدى فقد استغله فى القراءة والصلاة إلى حد أن أعلن أن « الطريق الحقيقى إلى السعادة يكمن فى الذهاب إلى السجن وفى المعاناة وراء القضبان من أجل الوطن والدين » .

وقد أدت التسوية المؤقتة التى تم التوصل إليها فى عام ١٩١١ بشأن المسألة الآسيوية فى الترانسفال إلى توقف حملة الساتياجراها . وفى السنة التالية ، زار جوكهال جنوب إفريقية وأكد للمهاتما غاندى ليلة سفره أن حكومة الاتحاد قد وعدت بالغاء « القانون الأسود » وبإزالة الحواجز العنصرية من قانون الهجرة وإلغاء ضريبة الجنيهات الثلاثة المقررة على رءوس الأفراد . غير أن غاندى كانت تراوده مخاوف سرعان ما أثبتت الحوادث صحتها . فقد نكصت حكومة الاتحاد بوعدها ، وزاد الطين بلة أن أصدرت المحكمة العليا حكماً يقضى بأن الزيجات المسيحية هى وحدها الزيجات الشرعية المعترف بها فى جنوب إفريقية ، مما جعل جميع الزيجات الهندية التى تمت هناك زيجات غير شرعية بجرة قلم وحول جميع الزوجات الهنديات إلى محظيات . وقد أثار ذلك غضب النساء الهنديات ومن بينهن كاستورباى ودفعهن إلى الانضمام إلى صفوف المكافحين .

كذلك كان من غير المسموح به قانوناً بالنسبة للمواطنين الهنود عبور الحدود من الترانسفال إلى ناتال أو من ناتال إلى الترانسفال دون الحصول على تصريح بذلك . فقامت السيدات الهنديات يعبرن هذه الحدود دون تصريح وواصلن سيرهن إلى نيوكاسل لتحريض عمال المناجم الهنود هناك على الاضراب . وقد نجحن فى ذلك ، مما أدى إلى القبض عليهن . واشتدت موجة الاضراب ، وانضم إلى قيادة غاندى آلاف من عمال المناجم والهنود الآخرين فى مسيرة إلى منطقة الحدود فى الترانسفال ، فى عمل جماعى ، وفى صورة تحديراً من العنف . وكان غاندى قد وضع قواعد صارمة يسير عليها أتباع الساتياجراها ، فقد كان عليهم أن يرضخوا صابرين للإهانات أو الجلد أو الاعتقال ، بل لقد تعرض هو نفسه للاعتقال وصدر ضده حكم بالادانة ، ولكن مبادىء الساتياجراها ظلت تنتشر ، ففى وقت واحد أضرب مايقرب من خمسين ألف عامل من العمال الهنود الذين يعملون بمقتضى عقود عمل ، وألقى بآلاف غيرهم فى السجن .

وقد لجأت الحكومة فى سبيل القضاء على هذا الاضراب إلى استخدام أساليب القمع بل وإلى إطلاق الرصاص فمات عدد كبير من جراء ذلك . وفى نهاية الأمر ، على حد قول احد الامريكيين ، « فعل الجنرال سمطس مافعلته أية حكومة اضطرت إلى مواجهة غاندى لقد استسلم » .

وافرج عن غاندى . وفى شهر يناير سنة ١٩١٤ تم التوصل إلى اتفاق مؤقت بينه وبين الجنرال سمطس كما تم الاتفاق على إجابة مطالب الهنود الرئيسية . وبعد انتهاء عمله فى جنوب افريقية سافر غاندى مع زوجته فى شهر يوليو سنة ١٩١٤ إلى انجلترا بناء على دعوة من جوكهال ولكنه أرسل قبل أن يستقل الباخرة التى حملته هو وزوجته إلى انجلترا بخف كان قد صنعه بنفسه وهو فى السجن هدية إلى الجنرال سمطس ، وقد كتب الجنرال بمناسبة هذه الهدية يقول « لقد ارتديت هذا الخف عدة سنوات فى فصل الصيف منذ ذلك الوقت رغم انى أشعر أننى غير أهل لأن أضع قدمى فى حذاء من صنع هذا الرجل العظيم » .

روح عظيم فى ثياب شحاذ

رحل غاندى فى إبريل سنة ١٨٩٣ إلى جنوب افريقية بحثا عن المال وهو مازال شابا يافعا يشتغل بالمحاماة ، وان كانت تنقصه الخبرة ، ثم عاد أخيرا إلى الهند فى يناير سنة ١٩١٥ كهلاً ما خالى الوفاض لا يملك من متاع الدنيا شيئا ولا أمل له إلا أن يخدم شعبه . وإذا كان المثقفون قد سمعوا عن أعماله وهو فى جنوب افريقية فان شهرته داخل الهند لم تكن واسعة فلم يدرك الشعب الهندى أن هذا « الروح العظيم فى ثياب شحاذ » ، كما وصفه الشاعر العظيم تاجور فيما بعد ، قد وصل إلى شواطىء الهند » بل إن غاندى نفسه لم يكن يعرف بلاده وقتها معرفة كاملة . ولذلك فقد وعد « إمامه واستاذه السياسى » جوكهال بأن يمضى السنة الأولى من إقامته فى الهند منكبا على دراسة أحوال البلاد « باذنين مفتوحتين وفم مغلق » . وبعد انقضاء السنة الأولى التى أمضاها متجولا فى انحاء الهند انتهى به المطاف إلى الاقامة على شاطىء نهر سابارماتى عند مشارف مدينة أحمد أباد حيث أسس لنفسه « اشرما » أو صومعة ، فى مايو سنة ١٩١٥ أطلق عليه إسم « أشرم الساتيا جراها » اجتمع معه فيه



« هريدايا كونج » أو « مستقر القلب » ـ منزل غاندى فى أشرم سابارماتى ، انشاه فى سنة ١٩١٧ ـ « عقيدتنا فى الأشرم هى الاخلاص للحق ، وعملنا فيه هو الاصرار على الحق » .

خمسة وعشرون من الرجال والنساء الذين عاهدوه على الصدق ، والبعد عن العنف والقتل، وعدم السرقة ، والتجرد من الملكية الشخصية ، والتقشف فى المأكل ، وتكريس النفس لخدمة الناس .

وكان أول خطاب عام ألقاه غاندى داخل الهند الخطاب الذى ألقاه بمناسبة افتتاح جامعة بنارس الهندوسية فى فبراير سنة ١٩١٦ وكان من بين الحاضرين نفر كبير من الأقطاب والامراء ونائب الملك نفسه . وقد دهشوا جميعا عندما استهل غاندى خطابه فقال إنه يشعر « بالذلة والخزى » إذ يضطر إلى « مخاطبة أبناء وطنه بلغة أجنبية عليهم » . وزادت دهشة الحاضرين عندما اتجه غاندى نحو الامراء وقد ازدانت بزاتهم بالجواهر الثمينة وهو يقول لهم « لن يكون هناك خلاص للهند إلا إذا تخلصتم من هذه الجواهر ووضعتموها أمانة فى خدمة أبناء الشعب الهندى » . حتى لقد اضطر عدد من الامراء إلى مغادرة مكان الاحتفال .

وقد مارس غاندى «الساتيا جراها» لأول مرة داخل الهند فى عام ١٩١٧ فى تشامباران بولاية بيهار، وكان قد توجه إليها بناء على طلب فلاح فقير للتحقيق فى الظلم الواقع على الفلاحين هناك الذى كان يمثل الاستغلال فى أبشع صوره حيث كانت السلطات البريطانية تجبرهم على زراعة ١٥ فى المائة من مساحة أراضيهم بنبات النيلة وأن يقدموا المحصول بأجمعه سدادا لقيمة إيجار الأرض . وقد انتشرت الانباء عن وصول المهاتما للتحقيق فى مظالم الفلاحين بسرعة البرق فترك آلاف الفلاحين قراهم وهرعوا للقائه والتبرك به وبثه شكواهم. واستثار ذلك الملاك وأصحاب المنافع فأمره مدير الشرطة بمغادرة الإقليم على الفور ، ولكن غاندى ابى أن يفعل ، فقدم للمحاكمة فى اليوم التالى . وذهب إلى المحكمة وقد تبعه آلاف من الفلاحين . وهناك كان القاضى فى حيرة من أمره ، فأجل المحاكمة وأمر بالافراج عن غاندى من غير ضمان ، ولا سيما أن غاندى كان قد رفض أن يقدم أية ضمانات .

وحفظت القضية بعد ذلك ومضى غاندى فى إجراء تحقيقه فى المظالم الواقعة على الفلاحين . ولم يقتصر عمل غاندى على إجراء هذا التحقيق بل قام خلاله بتلقين الفلاحين تعاليم دعوته إلى « الساتيا جراها » فعلمهم أن الشرط الأول للحصول على الحرية هو تحرر الذات البشرية من الخوف . ونادى فى الناس أن يتطوع بعضهم لتعليم الفلاحين الأميين القواعد الصحية، كما افتتح عددا من المدارس لتعليم أطفال الفلاحين. لقد كان هذا النشاط مثلا نموذجيا على ما اعتاد غاندى عمله. فهو فى الوقت الذى كان يعلم الناس فيه أن يجاهدوا من أجل حقوقهم راح يلقنهم دروسا فى الوفاء بالتزاماتهم، كما كان يلقنهم ان الشعب الحر يجب عليه أن يتعلم كيف يقف على قدميه . ولكن بقدر تزايد نشاط غاندى فى تثقيف الفلاحين هناك بقدر ما ازداد حنق



غاندى يرتدى إزاره المعروف

الحكومة على نشاطه مما جعلها أخيرا تقرر تشكيل لجنة للتحقيق فى مظالم الفلاحين . وقد وضعت اللجنة التى كان غاندى أحد أعضائها تقريراً فى صالح الفلاحين المقيمين فى الاقليم ، فكان من أثر نجاح غاندى فى تجربته الأولى فى الساتيا جراها داخل الهند أن ذاعت شهرته فى أرجاء البلاد .

وما كاد غاندى ينتهى من مهمته فى تشامباران حتى استدعى إلى أشرمه فى سابارماتى بناء على طلب عاجل بعث به إليه عمال النسيج فى أحمد آباد بسبب تفاقم الخلاف بينهم وبين أصحاب المصانع هناك .

فلما اقتنع غاندى بعدالة مطالب العمال ، وخاصة بعد أن رفض أصحاب مصانع النسيج إحالة موضوع الخلاف إلى التحكيم ، طلب غاندى الى العمال أن يضربوا بشرط أن يتعهدوا بعدم الالتجاء إلى العنف . ولكن بعد مضى أيام قليلة من بدء الاضراب اشتد حماس العمال وخشى غاندى ألا يلتزموا بعهدهم وأن يتحولوا إلى استخدام العنف مدفوعين إلى ذلك بشبح الجوع فقرر أن يجوع هو ، وأعلن إضرابه عن الطعام إلى أن يتم الوصول إلى تسوية . وفى النهاية وافق كل من العمال وأصحاب المصانع على إجراء تحكيم فيما شجر بينهما .

وبعد حل هذا النزاع مباشرة وقعت مشكلة لعمال الزراعة فى إقليم كهندا بولاية جوجيرات اذ ارغمت الحكومة الفلاحين ، وهم على شفا هوة من المجاعة ، على دفع الضرائب المقررة عليهم

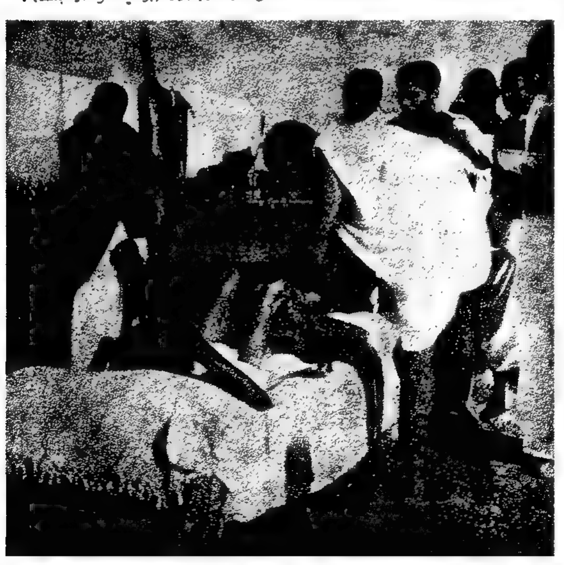
كاستوربای ، زوجة المهاتما غاندى ، وهى تعمل على عجلة الغزل . لقد كانت « جزءاً لايتجزأ » من حياته ، ووفيته المخلصة ، فكان لموتها وقع شديد فى نفسه ترك « فراغاً كبيراً » فى حياته .



وهنا نصحهم غاندى بشن حملة من حملات الساتياجراها وطالب جميع الفلاحين ، الغنى منهم والفقير ، بالامتناع عن تسديد الضرائب حتى يفى العاجزون منهم من تسديد ما عليهم . وقد استمرت حملة الامتناع عن تسديد الضرائب عدة شهور مما دفع الحكومة فى النهاية إلى اعفاء الفلاحين الفقراء منها .

ثم مالبثت أن وقعت حادثة مازالت تحير المسالمين فى دول الغرب . ففى عام ١٩١٧ دعا لورد تشلمسفورد غاندى لحضور مؤتمر للحرب عقد فى نيودلهى للاستعانة بقادة الهند واصحاب الرأى فيها فى حملة لجمع الرجال والجند . وكان غاندى حتى ذلك الوقت يؤمن بأن الامبراطورية البريطانية هى على أية حال قوة من قوى الخير وأن الهند وقد استفادت بصفة عامة من ارتباطها ببريطانيا فان واجب كل هندى أن يهب لمساعدة الامبراطورية البريطانية فى ساعة محنتها . ولم يكتف غاندى بتأييده للقرار الذى اتخذه ذلك المؤتمر ، بل طاف بأنحاء إقليم كهندا (وهو الإقليم الذى سبق أن قاد الفلاحين فيه فى حملة الساتياجراها) يدعو الناس إلى الانضمام إلى الجيش .

من بين نواحي النشاط فى الأشرمات التى أنشأها غاندى العناية بالمرضى وإعالة الفقراء . ويرى غاندى فى الصورة منهمكا فى تدليكاته اليومية لأحد مرضى الجذام فى أشرم سيجاوون (بولاية ماهراشترا بالهند) .



المهاتما والجماهير

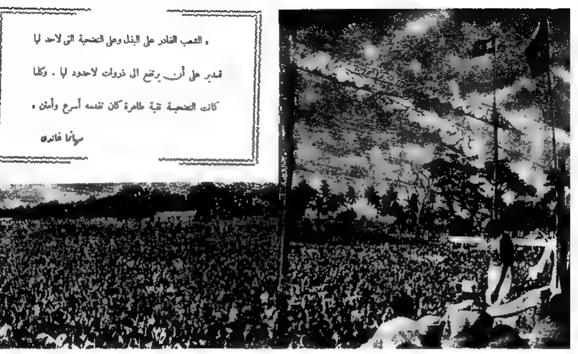
على أن الفضل فى دخول غاندى ميدان السياسة الايجابية فى الهند يعود إلى مشروع قانون راولات الذى كان يحرم الهنود من حرياتهم المدنية . فلقد ظل غاندى منذ ذلك الوقت ، من عام ١٩١٩ حتى وفاته فى عام ١٩٤٨ ، يشغل المكان الرئيسى على مسرح الأحداث فى الهند وكان بطل الدراما التاريخية الكبرى التى انتهت بنيل البلاد استقلالها . ولقد غير غاندى سمات الحياة السياسية فى الهند بأجمعها ولكنه ظل لا يتغير مع ذلك . كل ما فى الأمر انه ازداد نموا وعظمة ، ففى أحلك ساعات معركة بلاده ظل كما هو ، رجلا أخلص لله فى دينه.

ولما كان مشروع قانون راولات مسألة غير محلية أو اقليمية بل مسألة عامة تجعل من المعركة كفاحا عاما يشمل الهند بأجمعها فقد أخذ غاندى يعمل فكره فيما يجب أن يكون عليه هذا الكفاح ، فلقد كان عليه ان يشعل حماس الناس ومع ذلك يحول بينهم وبين الالتجاء إلى العنف . وأخيرا استقر رأيه على أن تبدأ المعركة فى صورة « هارتال » أى حداد أو احتجاج عام يتمثل فى إغلاق جميع المحلات والمخازن .

وقد اشترك جميع أفراد الشعب فى هذا الحداد على اختلاف طوائفهم وبحماس أدهش الجميع . بل ان غاندى نفسه لم يكن يدرك مدى قدرته على السيطرة على خيال جموع الشعب الهندى . كما أصيبت الحكومة كذلك بصدمة عنيفة وهى ترى غاندى ـ الجاويش الذى كان يساعد فى التجنيد وقت الحرب ـ قد تحول إلى ثائر متمرد . وازداد تهافت الناس على غاندى فى كل مكان ، فلما كان على وشك الذهاب إلى دلهى وأمريتسار تلقى إنذارا وهو فى محطة بالوال يمنعه من دخول البنجاب ولكنه رفض تنفيذ الأمر وألقى القبض عليه وأعيد مرة أخرى إلى بومباى .

وسرت أنباء اعتقاله كما تسرى النار فى الهشيم فأثارت سخطا شديدا بين أفراد الشعب وتجمع الناس فى المدن ، وقامت بعض الأحداث التى استخدم فيها العنف . وعندما وصل غاندى إلى أحمد أباد وسمع بأن أحد الضباط قد قتله الغوغاء ارتاع قلبه ، أو على حد قوله « لو أن خنجرا اخترق جسدى ما كان يؤلمنى بأكثر مما آلمنى ذلك النبأ » . ومن ثم فقد أوقف حملة الساتياجراها وفرض على نفسه الصوم ثلاثة أيام تكفيرا عن العنف الذى استخدمه الشعب

> « الشعب القادر على البذل وعلى التضحية التى لاحد لها قدير على أن يرتفع الى ذروات لاحدود لها . وكلما كانت التضحية نقية طاهرة كان تقدمه أسرع وأمتن »
>
> مهاتما غاندى



وفى نفس اليوم الذى اعلن فيه غاندى عن صومه فى احمد اباد ، وكان يوم ١٣ ابريل سنة ١٩١٩ ، أمر داير الجنرال البريطانى بإقامة مذبحة عامة قتل فيها مئات من المواطنين العزل الذين كانوا قد جاؤا ليحضروا اجتماعا فى حديقة جاليانوالا ، بأمريتسار . وقد اعترف التقرير الرسمى عن عدد المذبحة بأن ٤٠٠ شخص قد قتلوا وأن ما بين ألف وألفين قد جرحوا ، ولو أن التحقيق الغير رسمى الذى قام به غاندى شخصياً قدر عدد القتلى بألف ومائتى شخص وعدد الجرحى بثلاثة آلاف وستمائة . ثم تبع هذه المذبحة اعلان الأحكام العرفية فى البنجاب وما صحب ذلك من عمليات الاعتقال والجلد على نطاق واسع . وزاد الطين بلة صدور أمر يقضى بعدم السماح الهنود بالمرور فى شارع معين إلا زحفا على بطونهم . وتعتبر أحداث ذلك اليوم المشؤوم الذى وصفه سير فالنتين تشيرول بأنه « اليوم الأسود فى تاريخ الهند البريطانية » نقطة تحول فى تاريخ الكفاح الهندى . فلقد كانت هذه الأحداث بمثابة ضربة قاتلة لمركز بريطانيا وهيبتها . ومنذ ذلك اليوم لم يستطع غاندى أن يكون بمنأى عن مسرح الحياة السياسية فى البلاد .

ومن الأمثلة على طبيعة غاندى أنه رغم اهتمامه بتطور الأحداث فى إقليم البنجاب لم يكف عن مشاركة الهنود المسلمين فى تحمسهم الشديد وخوفهم على مصير السلطان التركي المهزوم الذى كان فى الوقت نفسه خليفة المسلمين أو زعيمهم الدينى . بل أكثر من ذلك أن دعوة غاندى إلى عدم التعاون مع الحكومة البريطانية صدرت أول ما صدرت فى مؤتمر إسلامى عقد فى دلهى .

ولعل مما يحسن ذكره هنا أن غاندى ، حين حضر دورة المؤتمر الوطنى الهندى فى لاكنو قبل ذلك بأربع سنوات ، كان مراقباً أكثر منه مشتركا فى أعمال المؤتمر ، حتى لقد وصفه جواهر لال نهرو وقتها بأنه « بدا بعيداً ، مختلفاً ، وغير سياسى » .

أما فى عام ١٩٢٠ فكان يتبوأ مكان الصدارة فوق مسرح الحياة السياسية فى الهند ، بل الواقع أنه أعاد خلق المؤتمر الوطنى من جديد وحول السياسيين فيه من خطباء متحدثين الى ثوريين عاملين ، ومن زعماء اجتماعيين « متجنلزين » إلى خدام للشعب يلبسون الملابس البيضاء المنسوجة باليد . كذلك قضى على الهوة التى كانت تفصل بين المثقفين وجموع الشعب وعمق مفهوم الاستقلال حتى أصبح يعنى كل ناحية من نواحى البحث الاجتماعى والأدبى . ومنذ ذلك التاريخ أصبحت قصة حياته هى قصة كفاح المؤتمر من أجل حرية الهند .

ولقد أثار غاندى عاصفة من الحماس فى الهند كان لها فعل السحر بدعوته إلى عدم التعاون . . . وقد بدأ غاندى هذه الحملة بان أعاد إلى نائب الملك جميع النياشين والميداليات التى قدمتها اليه الحكومة لخدماته فى الحرب وأعماله الإنسانية . وكتب غاندى فى ذلك إلى نائب الملك يقول « إننى لا أستطيع أن أكن احتراما أو حباً لحكومة ترتكب الخطأ بعد الخطأ دفاعا عن سلوكها غير الأخلاقى » . كما تنازل معه عدد كبير من المواطنين فى الهند عن ألقابهم ، وتوقف المحامون عن مزاولة أعمالهم ، وهجر الطلبة مدارسهم ومعاهدهم ، وانتقل الألوف ممن نشئوا وتربوا فى المدن إلى القرى لنشر رسالة عدم العنف وعدم التعاون مع حكومة « شيطانية » وتعبئة الجماهير فيها لتحدى القانون . وهكذا استيقظ الشعب بأجمعه من سباته ، وامتلأ قلبه إقداما وتضحية ، فراح يشعل النيران فى الأقمشة الأجنبية حتى تعالت ألسنة اللهب فى كبد السماء فى كل مكان ، وبدأت آلات الغزل تعمل فى ألوف من بيوت الهند حتى ارتفع طنينها كأنه انشودة من أناشيد التضحية . . . وبدأ السيدات يخرجن إلى الشارع بعد العزلة التى بقين فيها عدة قرون وسرن جنبا إلى جنب مع الرجل ، وتمكن بفضلهن من تحرير أنفسهن من القيود المتوارثة جيلا بعد جيل . وواصل غاندى مقالاته فى مجلتيه الاسبوعيتين ـ « الهند الفتاة »

و « ناقا جيفان » ـ فامتلأت أعمدتهما بالاحاديث والمقالات الحماسية التي سرت في النـاس كما يسرى تيار الكهرباء ، فكان من جراء ذلك كله أن زج بالآلاف من المواطنين في السجون وظل آلاف غيرهم ينتظرون الحكم عليهم بالسجن .

غير أن هذه الحملة لم تلبث أن تعرضت للانتـكاس فى شهر فبراير سنة ١٩٢٢ ، عندما لجأ بعض الغوغاء إلى استخدام العنف فى تشورى تشوراً ، مما آلم غاندى وأحزن قلبه إلى حد دفعه إلى رفض مواصلة حملته وإعلان عزمه على الصوم خمسة أيام تكفيراً عن جريمة ارتكبها غيره فى حالة من حالات هستيريا الجماهير . واحتج كثير من زملاء غاندى على وقف الحملة ورغم أنه اعترف بأن « وقف تنفيذ هذا البرنامج المدوانى بأجمعه بهذه الصورة القاطعة قد يكون غير سليم وغير حكيم من الناحية السياسية » فقد ظل متمسكا بانه « ما من شك فى أنه قرار سليم من الناحية الدينية » .

وشعر غاندى بأنه « من الأفضل مليون مرة أن نبدو غير صادقين أمام العالم من أن نكون غير صادقين مع أنفسنا » ، ذلك أن غاندى كان دائماً على استعداد حين تكون المسألة متعلقة بضميره لأن يقف وحده فى الميدان .

وقد كانت النتيجة المباشرة للتوقف عن مواصلة حملته أن وجدت الحكومة البريطانية فرصة مواتية لاعتقاله ، ولم يجد غاندى ما يمنعه من أن يقول للقاضى البريطانى الذى تولى محاكمته « إننى لا أكن سوءا لأحد من رجالات الإدارة شخصياً ، وليس فى نفسى حقد إطلاقا على شخص الملك ، ولكننى لا أجد حرجا ، بل أراها فضيلة ، أن أحمل بين جنبى شعوراً بعدم الرضى عن حكومة أساءت فى مجموعها الى الهند أكثر مما أساء إليها أى نظام سبقه . فالهند اليوم أقل رجولة فى ظل الحكم البريطانى منها فى أى وقت مضى ، وانى وقد آمنت بذلك أرى من الخطيئة أن يراودنى أى حب لهذا النظام . وليس أمامك (أى القاضى) إلا أحـد طريقين ، فاما أن تستقيل من عملك ، وهكذا تنأى بنفسك عن الشر ، هذا إذا كنت تحس بان القانون الذى تطبقه قانون سيء وأننى فى الحقيقة برىء ، وإما أن تحكم على بأقصى العقوبة إذا كنت تعتقد بأن النظام والقانون اللذين تسهم فى تنفيذهما هما حقا لخير هـذا البلد ، وأن النشاط الذى أقوم به نشاط ضار بمصلحة الشعب » .

وأصدر القاضى حكمة بحبس غاندى حبسا بسيطا لمدة ست سنوات ولكنه أعرب عن أمله بانه « إذا كان مجرى الأحداث فى الهند يجعل من الممكن تخفيض مدة العقوبة والافراج عنك ... فلن يكون هناك من هو أكثر منى سعادة » .

غاندى فى داندى (بولاية جوجيرات بشرق الهند) حيث تحدى فى ٥ ابريل سنة ١٩٣٠ القانون البريطانى القاضى بحرم جمع الملح دون دفع الضريبة . وترى ساروجينى نايدو الشاعرة والوطنية المعروفة ترحب به .





المهاتما غاندى مع الشاعر رابندرانات تاجور . يقول تاجور فى غاندى «لقد وقف على عتبة الآلاف من المعدمين ، يرتدى مايرتدون كأنه واحد منهم ، ويتحدث اليهم بلغتهم . . . لهذا كان اسم المهاتما (الروح العظيم) الذى أضفاه عليه شعب الهند اسمه الحقيق . فمن غيره من الناس كان يشعر كما شعر بأن أهل الهند جميعا هم لحمه ودمه ؟ » .

على أن السجن كان بالنسبة لغاندى متعة أكثر منه عقوبة ، فقد كان فى إمكانه وهو فيه أن يكرس مزيدا من الوقت للصلاة والدراسة والغزل أكثر مما يفعل وهو خارج السجن . ولكن فى عام ١٩٢٤ تعرض غاندى لمرض خطير نتيجة لإصابة حادة بمرض الزائدة الدودية . . . ونقل إلى المستشفى فى بونا حيث أجرى له أحد الجراحين البريطانيين عملية جراحية . وأثناء قضائه فترة النقاهة أصدرت الحكومة أمرها بالافراج عنه .

على أن ما رآه غاندى من بلده كرجل حر ، عندما أطلق سراحه ، آلمه أشد الألم . فعندما قبض عليه كان قد ترك الشعب على قمة نهضة معنوية عظيمة ربطت بين الطائفتين الدينيتين الرئيسيتين ، الهندوس والمسلمين ، كما لم يحدث من قبل ، ولكنه الآن ألفى هاتين الطائفتين وقد جرفهما التيار ، فانتشرت الاضطرابات الدينية بينهما فى أماكن عديدة . ولم يدر غاندى ماذا عساه يفعل لكى يوقف هذا التيار الموحش ، ومن ثم فقد فرض على نفسه الصوم واحدا وعشرين يوما تكفيرا جديدا منه عن خطايا بنى وطنه ، وقال قبل أن يعلن بدء صومه « لقد بدا لى وكأن الله قد تخلى عن عرشه ، وإذن فلنعمل لكى نعيده إلى عرشه فى أعماق قلوبنا » . وقد دفعه صومه إلى البحث فيما يجب أن تكون عليه قلوب الناس ، ولم تمض إلا فترة وجيزة حتى أخذت تنهال عليه العهود من رجال من طوائف مختلفة .

وفى السنوات الخمس التى أعقبت ذلك بدا غاندى وكأنه اعتزل العمل الإيجابى فى ميدان استثارة الجماهير وكرس نفسه إلى الدعوة إلى ما كان يعتبره مطلبا وطنيا أساسياً ، إلا وهو الوحدة بين الهندوس والمسلمين ، والقضاء على عادة « النبذ » ، وتحقيق المساواة بين الرجال والنساء ، ونشر للغزل اليدوى بين الناس ، وأعادة بناء اقتصاد القرية بصفة عامة .

كتب غاندى فى يونيو سنة ١٩٢٣ يقول « أنا لست معنيا بتحرير الهند من نير الانجليز فحسب ولكنى معنى كذلك بتحريرها من كل نير ، أيا كان هذا النير. » حقاً فلقد كانت الأوضاع تتطلب أن تسير حركة الحرية السياسية وحركة الحرية الاجتماعية الاجتماعية والاقتصادية جنبا إلى جنب .

يضاف إلى ذلك أن غاندى حين خرج من السجن وجد المؤتمر الوطنى منقسما على نفسه، على أن الجماعات المختلفة عادت بعد ذلك فالتأم شملها قبل نهاية عام١٩٢٩ ، وفى اليوم الأخير من ذلك العام حين تقدم هو بنفسه إلى المؤتمر بمشروع قرار يعلن أن هدف البلاد هو الاستقلال التام ويجعل هذا الاستقلال محورا لسياسة المؤتمر كان من الواضح أنه أصبح على استعداد مرة أخرى ليقود الشعب فى تحد سافر للحكم البريطانى ... وقد وضع صيغة عهد بالعمل على الاستقلال فى ٢٦ يناير سنة ١٩٣٠ وهو اليوم الذى تحتفل به الهند فى الحاضر باعتباره عيد الجمهورية الهندية . ومنذ أن اتخذ غاندى هذه الخطوة اتجهت العيون صوب سابارماتى والكل يتساءل : « ماذا عسى ذلك الساحر الذى ينادى بعدم العنف أن يفعل بعد ذلك » ؟

وفى يوم ١٢ مارس سنة ١٩٣٠ ، وبعد إطلاع نائب الملك على مايزمع أن يفعله ، خرج غاندى ومن خلفه ثمانية وسبعون من أتباعه ، منهم الرجال والسيدات ، فى مسيرة تاريخية استمرت أربعة وعشرين يوما متجهين صوب شاطىء البحر عند قرية داندى معتزمين خرق القانون الذى حرم على الرجل الفقير ان يعد ملحه بنفسه . وقد تبدو القضية التى بدأت من أجلها هذه المسيرة قضية بسيطة ولكن الطريقة الدرامية التى أعلن بها غاندى عن هذه المسيرة والطريقة التى نفذها بها ، وسير « رجال الله » العزل من كل سلاح خلفه ٢٤١ ميلا على الأقدام ، ثم خروج الملايين من القرويين من بيوتهم وحقولهم ليركعوا على جانبى الطريق الذى يسير فيه الموكب ـ كل ذلك أذكى عقـول الناس وأثار حماسهم إلى درجة لم يكن أحد يتوقعها ... وفى الساعات الأولى من صباح يوم ٦ أبريل ، وبعد أن أدى صلاته ، توجه غاندى إلى شاطىء البحر وحمل فى يده كتلة صغيرة من الملح قذفت بها الأمواج إلى الشاطىء . واندفعت الجموع من خلفه تفعل مافعل فـكان ذلك إيذانا ببدء حملة على مستوى الشعب بأجمعه لتحدى هذا القانون . وهبت جموع الشعب ، رجالا ونساء ، قرويين سذجا ومثقفين من أهل المدن ، يتحدون القانون ، لايبالون فى سبيل ذلك بالقبض عليهم ، أو بعصى الشرطة الثقيلة ، أو بالنـار تطلق عليهم فى بعض الحالات . وقد اعتقل غاندى نفسه فى ٤ مايو بعد منتصف الليل بقليل،ولم تمض أسابيع معدودة حتى كان مايقرب من مائة ألف رجل وامرأة داخل السجون والمعتقلات ممـا سبب ارتباكا لأجهزة الحكومة البريطانية .

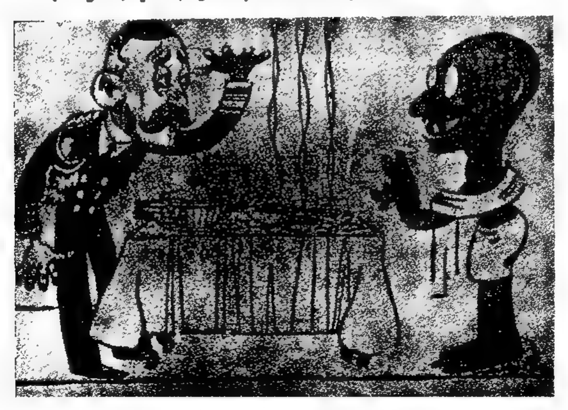
ولمـا عقد مؤتمر المائدة المستديرة الأول فى نوفمبر سنة ١٩٣٠ وجدت حكومة العمال البريطانية نفسها فى موقف حرج ، ولذلك ففى الجلسة الختامية للمؤتمر فى ١٩ يناير سنة ١٩٣١ أعرب رمزى ماكدونالد عن أمله فى أن يكون المؤتمر الوطنى ممثلا فى المؤتمر المقبل . ومن ثم فقد أفرج عن غاندى وعدد آخر من زعماء المؤتمر الوطنى دون شرط فى ٢٦ يناير ، أي بعد مضى عام كامل على اليوم الذى أعلن فيه عهد الاستقلال . وبعد ذلك مباشرة ، فى ١٤ فبراير ، بدأت المباحثات بين غاندى وايروين مما أثار حفيظة ونستون تشرشل الذى هاله أن يرى « هذا المنظر المؤلم المهين الذى يستطيع فيه رجل كان فى يوم من الأيام عضوا بنقابة المحامين البريطانيين فانقلب فقيرا يثير الفتنة بين الناس ان يصعد الدرج فى قصر نائب الملك وهو نصف عار من ملابسه ليتفاوض مع ممثل الملك ـ الامبراطور على قدم المساواة » .

زيارة لانجلترا

وهدية في عيد الميلاد

وفي ٥ مارس تم توقيع معاهدة غاندي — اروين ، وأبحر غاندي إلى لندن لحضور المؤتمر الثاني للمائدة المستديرة بوصفه الممثل الوحيد للمؤتمر الوطني في ٢٩ اغسطس . وقد صرح قبل إبحاره يقول « هناك احتمال كبير بأن أعود إلى بلادي صفر اليدين » . وكان على حق في ذلك . ولكن بالرغم من عودته صفر اليدين فقد حققت زيارته بعض النتائج الهامة ، فلقد كان غاندي وقتها قد أصبح اسطورة عظيمة وراح بعض الناس ينسجون حوله قصصاً مثيرة ، بعضها حسن وبعضها ينطوي على سوء النية . فلما جاء إلى انجلترا كان ذلك فرصة طيبة للشعب البريطاني كي يرى بنفسه هذه الشخصية الساحرة البسيطة الرقيقة التي لا يمكن مقاومتها ، ويشهد عواطفه التي تسع الناس جميعاً ، ويستمع إلى نكاته وإلى ضحكاته التي تنتقل عدواها إلى الغير .

صورة كريكاتورية نشرت في مجلة انجليزية ظهر فيها جورج الخامس ، الملك — الامبراطور وهو يستقبل المهاتما غاندي خلال زيارته للندن في سنة ١٩٣١ لحضور مؤتمر المائدة المستديرة .
وأسر أحدهم إلى غاندي ، وقد لاحظ ماعليه من إزار بسيط ، أنه كان من واجبه أن يرتدي لباساً كاملا ، فأجابه غاندي وفي عينيه بريق « لقد كان للملك يرتدي من اللباس مايكفينا نحن الاثنين » .





غاندى فى مؤتمر المائدة المستديرة الثانى . لقد علق أحد المفاوضين البريطانيين فى المؤتمر يقول : « كان إخلاصه عظيما الى حد جعل بعضنا يتشكك ، وبسيطا الى حد حير عقولنا » .

وفى لندن رفض الإقامة فى فندق وفضل الإقامة فى قاعة كنسلى ــ وهى مركز للخدمة العامة فى شرقى لندن (حى العمال والفقراء) . وسرعان ما اكتسب حب الجميع ، كبيرهم وصغيرهم . فقد استطاع برقته ومرحه أن يحطم حواجز التعصب القومى والعنصرى . وعندما سئل عن سبب ارتدائه ذلك الإزار البسيط حول وسطه ، أجاب « أنتم أيها القوم ترتدون لباسكم كاملا حتى وأنتم تلعبون الجولف اما أنا فلا ألبس من الثياب إلا أقلها » وسافر بعد ذلك إلى لانكشير حيث كانت مقاطعته للملابس الأجنبية سبباً فى تفشى البطالة فيها ، وقد استقبله العمال بالحفاوة وقال له واحد من العاطلين « إننى واحد من العاطلين . ولكنى لو كنت الآن فى الهند لرددت مايقوله مستر غاندى » .

وفى طريق عودته قام بزيارة رومان رولان فى سويسرا وأخذ يشرح فى اجتماع ضم طائفة من أنصار السلمية فى لوزان لم كان يفضل أن يقول « الحق هو الله » على أن يقول « الله هو الحق » .



ويوم عاد إلى بومباى قال «لم تمر بى تجربة واحدة، خلال إقامتى فى انجلترا واوروبا ثلاثة أشهر، تجعلنى أشعر حقا بأن الشرق شرق والغرب غرب، بل على العكس، قد زدت اقتناعا أكثر من أى وقت مضى بأن الطبيعة البشرية هى هى مهما اختلفت الظروف الجوية، وانك إذا عاملت الناس بالثقة والحب فان الناس سيردون لك ثقتك عشرة أضعافها وحبك ألف ضعف».

فى عدن :

غاندى يخطب فى اجتماع عقد فى عدن وهو فى طريقه الى لندن لحضور مؤتمر المائدة المستديرة سنة ١٩٣١ . قال غاندى يحدث المجتمعين « إن هذه الجزيرة العظيمة التى ولد فيها محمد وبعث فيها الاسلام مثل حى على التسامح الدينى وعلى انسانية الانسان »





فى بورسعيد:

غاندى مع الزعيم الهندى المسلم ، شوكت على ، وقد وقفا فوق ظهر الباخرة فى بورسعيد فى طريقها الى لندن لحضور مؤتمر المائدة المستديرة سنة ١٩٣١ .
لم يسمح له البريطانيون بالنزول الى البر ، لكن ذلك لم يحل دون أن يظهر شعب مصر مناصرتهم لكفاحه من أجل استقلال الهند . وقد أرسل له مصطفى النحاس باشا رئيس الوفد المصرى يومئذ برقية يقول فيها : « باسم مصر ، التى تجاهد من أجل حريتها واستقلالها ، ارحب فى شخصكم العظيم بزعيم الهند العظيم ، الهند التى تحارب هى الاخرى لتحقق نفس الهدف » . كذلك بعثت السيدة صفية زغلول ببرقية اليه تعبر فيها عن « أخلص التحية وأطيب الأمانى » لغاندى « الزعيم العظيم للهند العظيمة » .

غير أن التجربة العاجلة التى كانت تنتظره سرعان ما قضت على هذا التفاؤل . فقبل وصوله إلى الهند كانت معاهدة غاندى ــ اروين قد تحطمت على صخرة السياسة التعسفية التى اتبعها اللورد ولنجتون ، نائب الملك الجديد ، حتى أصبحت الهند تحكمها الأوامر والقرارات وأضحت الاغتيالات وإطلاق النيران على المدنيين مظهراً من مظاهر الحياة اليومية ، كما قبض على جواهرلال نهرو وهو فى طريقه إلى بومباى لاستقبال غاندى .

وقد صرح غاندى عند وصوله يوم ٢٨ ديسمبر سنة ١٩٣١ يقول « إننى أعتبر ذلك هدية عيد الميلاد يقدمها لنا اللورد ولنجتون نائب الملك المسيحى » . وبعد اسبوع من وصوله قبض عليه هو نفسه وأودع سجن يراقادا دون محاكمة .

ولم يكن هذه المرة « سعيداً كالطير » كعادته كلما أقام خلف أسوار السجن . فقد أقلقه أن يسمع أن الحكومة البريطانية تعتزم أن تجعل فى دستور الهند الجديد دوائر انتخابية

منفصلة لا للمسلمين فحسب ، بل و « للمنبوذين » كذلك ، بغية احداث شقاق فى المجتمع الهندى . ومن ثم فقد كتب إلى رمزى ماكدونالد يعلن عن تصميمه على « الصوم حتى الموت » . وفى الساعات الأولى من يوم ٢٠ سبتمبر كتب خطابا إلى تاجور يقول « إنها ساعة مبكرة ، الثالثة من صباح الثلاثاء ، ولسوف الج الأبواب الملتهبة عند الظهر . فاذا كنت تستطيع أن تبارك جهدى فإنى فى حاجة إلى أن تباركه ، فلقد كنت صديقاً وفياً لأنك كنت صديقاً صريحاً » . وفى اللحظة التى كان يسلم فيها الخطاب إلى أحد الحراس ليرسله بالبريد تلقى غاندى برقية من تاجور يقول فيها «ان وحدة الهند وترابطها الاجتماعى جديران بأن نضحى بأرواحنا من أجلها . . . ان قلوبنا الحزينة ستتابع تكفيرك السامى بكل تبجيل وحب » .

لقد عبرت كلمات تاجور فى الواقع عن مشاعر الأمة كلها. فلقد أثارت التجربة القاسية التى دخلها غاندى طوعا مشاعر كل هندى وحركت قلب الأمة بأسرها ، إذ شارك كل واحد منهم فى الإحساس بالذنب من أجل وصمة «النبذ» ، وإذن فلو أن غاندى مات أثناء تكفيره هذا ،لأصبحت الخطيئة خطيئة الكل .

وبعد خمسة أيام عاشتها الأمة فى قلق وترقب وقع زعماء الهندوس وزعماء «المنبوذين» الذين كان غاندى يطلق عليهم كلمة « هاريجان » أى « احباب الله » ، ميثاقا بينهما أقره غاندى .

وفى اليوم التالى ، وبينما صحة غاندى فى تدهور شديد ، جاءت الأنباء تعلن بأن الحكومة البريطانية قد وافقت على النص الجديد، فعدل غاندى عن صومه بعد الظهر. واذا كان هناك عمل بذاته يمكن أن يعتبر المعول الذى كسر شوكة « عادة النبذ» فهذا العمل هو صوم غاندى .

وحتى قبل ان تنتهى مدة الصوم كان الهندوس والمنبوذون يتعانقون ويتحابون فى شوارع المدن ، والمعابد تفتح أبوابها للمنبوذين .

وخلال السنوات الست التى تلت ذلك ، كرس غاندى كل جهوده لرفع شأن المنبوذين ووضع خطة شاملة لاعادة بناء القرية الهندية ونشر التعليم فيها . وظل غاندى فى الوقت نفسه يواصل دعوته الى وحدة الهندوس و المسلمين ويحاول ان ينأى بالشباب عن أساليب العنف . وقد سلم مزرعة أشرمه فى سبارماتى الى احدى جميات المنبوذين ونقل مقر اقامته الى اشرم آخر فى واردها . ومما يؤثر عنه قوله « ان الهند تعيش فى قراها لا فى مدنها ، فاذا نجحت فى تحرير القرى الهندية من الفقر أكون قد حققت السواراج

(الاستقلال) » . وكان قد طرأ على أفكاره تغير تدريجي يكاد يكون غير ملموس منذ أن وضع كتابه « هند سواراج » أي (استقلال الهند) قبل ذلك بربع قرن . فلقد زاد من معارضته للتصنيع المركز ما كان لهذا التصنيع من ارتباط وثيق بالاستعمار ، فكتب في عام ١٩٢٢ يقول « لا يستطيع أي تضليل أو تلاعب بالارقام أن يفسر ظاهرة الهيا كل العظمية التي تبدو للعيان في القرى . ولا يخامرني شك على الاطلاق في أن كلا من انجلترا وساكني المدن في الهند سوف يحاسبون ، مادام هناك الله في السماء ، عن هذه الجريمة التي تقترف في حق البشرية والتي ليس لها مثيل في التاريخ » . وفي الوقت نفسه كان قد تعمق ادراكه لطبيعة الانتاج بالآلات على نطاق واسع ، فقد كتب في عام ١٩٢٤ يقول « ان ما أعترض عليه هو تلك الرغبة المحمومة في استخدام الآلات ، لا الآلات نفسها ... ان الدافع وراء هذه الرغبة المحمومة ليس الرغبة الخيرة في توفير العمل ، وانما هو الجشع ، وان كفاحي انما يتجه الى مقاومة هذا الوضع بكل ما أوتيت من قوة » . وكغيره من أصحاب العقول الحساسة ازدادت نفسه رحمة وحنانا ، وفهمه هدوءاً وعمقا كلما مرت به السنون .



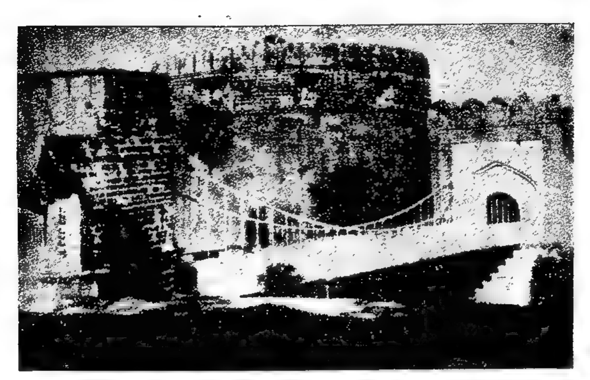
مع رومان رولاند ، الفيلسوف الفرنسي ، في فيلانيف
في ديسمبر ١٩١١ « أفكار تنطلق من مفكرين كبيرين فتلتقي ببعضها » .

اتركوا الهند !

لما نشبت الحرب العالمية الثانية فى سنة ١٩٣٩ جرف التيار غاندى الى حلبة الأحداث السياسية مرة أخرى . لقد وقف يعاون الامبراطورية البريطانية فى الحرب العالمية الأولى باخلاص ووفاء ، ولما وقعت حرب البوير قام ، على الرغم من عطفه على البوير الذين كانوا يقاتلون من أجل استقلالهم ، بعرض خدماته على الامبراطورية البريطانية مدفوعا بشعور من الولاء . أما الآن فقد تغيرت مشاعره ، رغم أن « عواطفى كانت مع الحلفاء » على حد قوله ، اذ كان قد آمن بأن « الحروب عمل خاطىء من أساسه » ، كما أدرك التناقض الذى كان ينطوى عليه وضع بريطانيا ، فهى تحارب من أجل الحرية ولكنها فى الوقت نفسه تنكر على الهند حريتها وقد كان فى الهند فى ذلك الوقت عدد كبير من المواطنين يؤمنون بان الساعة قد حانت كى تضرب الهند ضربتها ، وأن محنة بريطانيا هى فرصة الهند الذهبية ، ولكن غاندى رفض أن يقر مثل هذا العمل ، « فاننا ، كما قال « لا نسعى الى الحصول على استقلالنا على أنقاض بريطانيا ، اذا ليس هذا سبيل عدم العنف » .

وكانت الأغلبية العظمى من أعضاء المؤتمر الوطنى الهندى يفضلون المشاركة فى المجهود الحربى على شريطة أن تكون الهند فى مشاركتها فى وضع الند للند مع بريطانيا ، ولكن غاندى كان لايؤمن بعدم العنف المشروط ، وكان واقعيا الى الحد الذى جعله يدرك أنه لا يستطيع أن يحمل أغلبية زعماء المؤتمر ، وهم على أحسن الحالات سياسيون وطنيون ، لا قديسون ، على السير فى الطريق الصعب ، طريق عدم العنف ، ولا هو كان من الغرور او الصلف بحيث يجبر المؤتمر على الخضوع لشروطه كثمن لزعامته ، وان كان يعلم فى الوقت نفسه إن زعامته فى الأزمة السياسية القائمة أمر لايستطيع المؤتمر أن يستغنى عنه ، ومن هنا فقد نحا نفسه نحوا ونصح الشعب بقبول وجهة نظر المؤتمر ثم انطلق يناشد البريطانيين باسم المؤتمر ونيابة عنه .

غير أن الحكومة البريطانية لم تكن بها حاجة الى أن تنصت الى مناشدته ، فقد كان ونستون تشرشل صريحاً حين قال انه « لم يصبح رئيس وزراء الملك كى يشرف على تصفية الامبراطورية البريطانية » . وكان الموقف فى الوقت نفسه يتدهور تدهوراً سريعاً ، فقد عجز البريطانيون عن صد تيار الزحف اليابانى نحو حدود الهند ، وازداد قلق الهنود من جراء ذلك وأوشك صبرهم أن ينفد . وخشى غاندى من تفجر هذا القلق النفسى وتحوله



قلعة أحمد ناجار التي سجن فيه البريطانيون غاندي وغيره من أعضاء لجنة المؤتمر العاملة (سنة ١٩٤٢) بعد انطلاق صيحة « اتركوا الهند » ضد البريطانيين .



غاندي مع المسجونين السياسيين في سجن دم دم المركزي في كلكتا : ديسمبر ١٩٤٥ .



مع الزعيم الهندى المسلم الشهير ، مولانا أبى الكلام آزاد ، رئيس المؤتمر الوطنى الهندى ، فى الاجتماع التاريخى الذى عقدته لجنة المؤتمر الوطنى لجميع الهند فى بومباى (أغسطس ١٩٤٢) وانطلقت منه صيحة « اتركوا الهند ! » فأصبحت شعاراً للحركة الوطنية الهندية ضد البريطانيين .

الى اضطرابات متفرقة والى أعمال العنف إذا لم يجد لنفسه تعبيراً منظماً على أساس من عدم العنف . ولما كان البريطانيون ، فيما يبدو ، عاجزين عن ان يؤمنوا سلامة الهند وأن يدافعوا عنها ، ولا يريدون فى الوقت نفسه أن يدعوا الهند تدافع عن نفسها ، فقد قام غاندى ينادى فيهم ان « اتركوا الهند ! » . واستعد غاندى لشن حملة من حملات « الساتياجراها »،وقال وهو يخطب فى الاجتماع التاريخى الذى عقدته لجنة المؤتمر الوطنى لجميع الهند فى ٧ أغسطس سنة ١٩٤٢ « ان خلافنا ليس مع الشعب البريطانى . كل مافى الأمر اننا نحارب استعمارهم ، والاقتراح الذى يطالب بانسحاب القوة البريطانية من البلاد ليس مبعثه الغضب بل مبعثه الرغبة فى تمكين الهند من أن تلعب دورها الجدير بها فى المرحلة الحرجة الحالية » .

ولم يكن غاندى قد انتهى بعد إلى خطة عمل محددة ولكنه أراد على أية حال أن يقابل نائب الملك قبل أن ينتهى من تحديد خطته . على أن عنصر المبادأة سرعان ما أفلت من يده . ففى الساعات الأولى من صباح ٩ أغسطس قبض عليه مع عدد آخر من زعماء المؤتمر . وانتشرت الاضطرابات على الفور فى جميع أرجاء البلاد ، وبعضها اضطرابات عنيفة . ولم

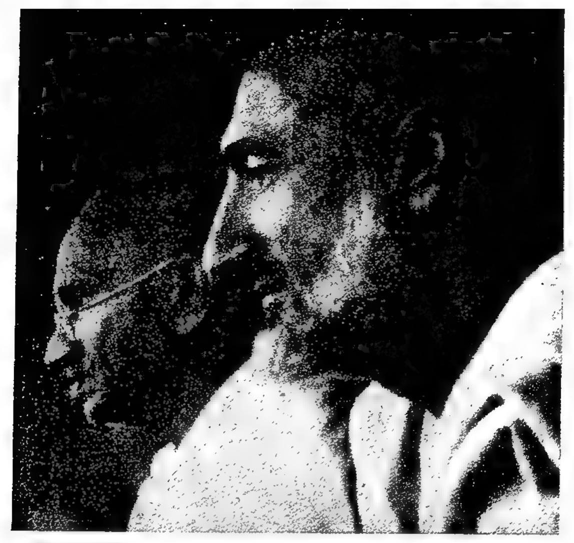


مع جواهرلال نهرو في اجتماع المؤتمر الوطنى

يكن أمام الحكومة وقد حرمت الشعب من زعامته التى تنادى بعدم العنف إلا أن تجيب على العنف بعنف أشد منه ، حتى أصبحت الهند بالفعل بلداً يئن تحت نير الاحتلال المسلح .

واحتجز غاندى فى قصر أغا خان بالقرب من بونا ، وكان مما أقض مضجعه الأرهاب الذى ساد البلاد واتهام الحكومة البريطانية له بأنه المسئول عن اعمال العنف . ومن ثم فقد بدأ سلسلة من المراسلات مع الحكومة انتهت باعلان صومه واحدا وعشرين يوماً . وفى خلال صومه ، الذى بدأ فى ١٠ فبراير سنة ١٩٤٣ ، ساءت حالته الصحية إلى حد خشى معه ان يقضى نحبه ، وكان من حسن الحظ أنه بقى حياً بعد انتهاء الأجل الذى ضربه لصومه . على أن الفترة التى قضاها غاندى فى السجن هذه المرة كانت فترة مليئة بالمحن والحزن بالنسبة له . فلم تكد تمضى ستة أيام على القبض عليه حتى توفى ماهديف ديساى ، كاتم سره وصديقه الحميم مدة أربعة وعشرين عاما ، على إثر نوبة قلبية مفاجئة . ثم فى ديسمبر سنة ١٩٤٣ مرضت كاستورباى ، زوجته ، وتوفيت فى فبراير من العام التالى .

وقد كان لهذه الأعباء والهموم التى صادفها غاندى منذ القبض عليه ، أثرها على صحته ، فلم تكد تمر ستة أسابيع على وفاة زوجته حتى أصيب اصابة شديدة بالملاريا ، حتى لقد وصفت النشرة الطبية حالته العامة فى ٣ مايو بأنها « تدعو إلى القلق » . واضطرت الحكومة ، وقد ألفت نفسها فى حرج شديد بسبب هياج الرأى العام من جراء الأخبار



غاندى إمع خان عبد الغفار خان «فخر الافغانيين» كما كان يحلو للبطانيين (على حدود الهند الشمالية الغربية) أن يسموه . لقد كان عبد الغفار خان يسمى كذلك « غاندى الحدود »، فلقد حاول ، مثله فى ذلك مثل غاندى ، أن يحرر مناطق الحدود من السيطرة البريطانية بأسلوب الكفاح المبرأ من العنف .

السيئة عن صحة غاندى ، إلى الافراج عنه فى ٦ مايو دون قيد أو شرط ، وظل غاندى بعد ذلك فترة طويلة يشكو من الهزال والضعف إلى حد أنه كان مضطراً ، لكى يحافظ على نشاطه ، أن يبقى صامتاً فترات طويلة من النهار .

وسواء أكان ضعيفاً أو معافى فان غاندى لم يكن بالرجل الذى يقف مكتوف اليدين وهو يرى الوضع فى البلاد يتدهور بسرعة ، ومن ثم فقد طلب مقابلة نائب الملك ، اللورد ويفيل ، ولكن نائب الملك رفض مقابلته . وكان غاندى يدرك ان البريطانيين لا يفتأون يشجعون الخلاف بين الطائفتين الكبيرتين فى الهند ، المسلمين والهندوس ، كى يتخذوا من خلافهم مبررا لاستمرار احتلالهم للبلاد ، ولذلك فقد ظل غاندى خلال حياته السياسية كلها يعمل مخلصا كى يؤلف بينهما ، ولم يكتف بذلك بل جعل مسألة الخلافة الإسلامية فى سنة ١٩١٩ مسألته الخاصة ، لا مسألة المسلمين وحدهم ، كما صام فيما بعد من أجل التوفيق بين الطوائف الدينية .

الحرية والاستشهاد

لقد عجز البريطانيون عن السيطرة على الموقف فى الهند الذى أخذ يزداد سوءا سنة بعد أخرى ، بعد أن قضت الفتن والاضطرابات على ممتهم وأتت الجماعات على ما كان لهم من هيبة . صحيح أن بريطانيا خرجت منتصرة من الحرب العالمية الثانية لكنها خرجت منها منهوكة القوى ، وان كانت أكثر رشدا وتعقلا . وجاءت الانتخابات العامة فى بريطانيا فى عام ١٩٤٥ فأعادت حزب العمال البريطانى إلى الحكم . وإذ كان المستر آتلى ، رئيس الوزراء البريطانى الجديد ، شديد الحرص على ألا يفقد الهند كلية إن هو أصر على اتباع سياسة المستر تشرشل التى تقوم على الدم والحديد فقد وعد « بتحقيق الحكومة الذاتية فى الهند فى وقت مبكر » ، كما كان من المقرر فى الوقت نفسه إجراء انتخابات فى الهند وتكوين جمعية تأسيسية لصياغة دستور الهند المتحدة . ثم جاءت إلى الهند بعثة وزارية من انجلترا لتبحث مع زعمائها الصورة الجديدة التى سوف يكون عليها وضع الهند المتحررة فى المستقبل ، غير أن اللجنة فشلت فى التوفيق بين المؤتمر الوطنى والرابطة الإسلامية . وفى ١٢ اغسطس سنة ١٩٤٦ دعا نائب الملك جواهرلال نهرو إلى تأليف حكومة انتقالية من المؤتمر الوطنى الهندى (وكان يرأسه وقتئذ مولانا أبو الكلام آزاد) ومن الرابطة الإسلامية وبعض العناصر السياسية الأخرى .

وجاءت فى أعقاب ذلك أنباء الاضطرابات الطائفية التى استعرت فى إقليم نوكهالى فى بنغال الشرقية فلم يستطع غاندى أن يبقى ساكنا أكثر من ذلك ، ورأى من واجبه أن يروض الأسد داخل عرينه وأن يعلم الطائفتين الكبيرتين كيف تعيشان معا فى ألفة ووئام ، فإذا عجز كان ذلك دليلا على أن رسالة عدم العنف التى ظل ينادى بها قد وقعت على آذان فيها وقر ، وأن الحرية التى قاد الهند إلى أعتابها ليست الحرية التى ظل يحلم بها . ومن ثم فقد صمم ، رغم توسلات زملائه الذين عز عليهم أن يجازف بحياته ، على أن يذهب بنفسه إلى نوكهالى .

ولعل هذا العمل الجرىء الذى قام به غاندى كان أكثر الصفحات إشراقا فى كتاب حياته المشرق . فنى اللحظة التى كانت الحرية السياسية فيها على وشك أن تتحقق ، وفى الوقت الذى دنت منه سلطات الدولة بكل أجهزتها حتى أصبحت فى متناول يده إذا شاء جمعها فى يده رفض كل هذا وآثر أن يذهب وحده فى رحلة موحشة ، مليئة بالأخطار ،

ليغرس فى قلوب النـاس رسالة المحبة والشجاعة وسط بيداء الانفعالات الطائفية . وفى مكان قصى من البنغال ، خلا من الطرق وافتقر إلى وسائل الانتقال الحديثة بأنواعها ، تجوبه جماعات من المتهورين الدينيين الذين لايعترفون لأحد بسلطان عليهم ، أقام غاندى خيمته وأبى أن يسمح لرجال الشرطة بحمايته ، وانطلق ، وهو فى السابعة والسبعين من عمره ، يسير من قرية إلى قرية ،عارى القدمين،وفى طرق ريفية وعرة تعترضها مستنقعات منخفضة لاسبيل إلى عبورها إلا فوق جسور مؤقتة صنعت من سيقان البامبو قد تنقض فى أية لحظة ، يعيش على الفاكهة والخضر المحلية ، ويعمل بالليل وبالنهار ليغرس رسالة المحبة والشجاعة فى قلوب رجال ونساء ملأ الفزع قلوبهم من هول الانفعالات الطائفية . يقول فى ذلك « ليس لى إلا هدف واحد. إنه هدف واضح وجلى ، هو أن يطهر اللهقلوب الهندوس والمسلمين من الشكوك والمخاوف التى تراود كل طائفة منهما ضد الأخرى » .

هكذا عاش غاندى فى نوكهالى ، يحتمل المشاق ، ويعلم النـاس الحكمة والتسامح ، من ٧ نوفمبر سنة ١٩٤٦ حتى ٢ مارس سنة ١٩٤٧، حين اضطر إلى الرحيل إلى بيهار ليفعل فيها مافعله فى نوكهالى ، ينتقل مرة أخرى من قرية إلى قرية، يطلب إلى الناس أن يكفروا عما اقترفوا من آثام ، ويجمع الإعانات لغوث المصابين وأبنـاء السبيل الذين لم يعد لهم مأوى من جراء الاضطرابات والفتن ، فلقيت دعوته استجابة واسعة وجاءه عدد كبير من النساء يقدمن اليه حليهن.

وفى مايو سنة ١٩٤٧ استدعى غاندى إلى دلهى ، إذ كان نائب الملك الجديد ، اللورد مونتباتن ، قد نجح فى اقناع زعماء المؤتمر الوطنى بقبول مطالب الرابطة الإسلامية بشأن تقسيم الهند كشرط مبدئى لانسحاب البريطانيين من البلاد . وهكذا تم فى ١٥ أغسطس سنة ١٩٤٧ تقسيم الهند وأصبحت الهند دولة حرة مستقلة .

غير أن غاندى رفض أن يحضر الاحتفالات التى أقيمت فى العاصمة الهندية فى هـذه المناسبة وذهب إلى كلكتا حيث كانت الاضطرابات الطائفية لاتزال مشتعلة ، فاذا بالمعجزة تحدث ، وإذا بالاضطرابات التى ظلت تستعر سنة كاملة تتوقف ، والطائفتين الكبيرتين تتآخيان وتتحابان . وقضى غاندى اليوم بطوله صائماً يصلى شكرا لله ، غير أن مما يؤسف له أن الاضطرابات الطائفية عادت فاشتعلت مرة أخرى فى ٣١ أغسطس وتعرضت سلامته للخطر ، وكان يقيم وقتها عند أحـد المسلمين فى بيته . ولم يتردد غاندى فى علاج



غاندی مع اللورد والليدی مونتباتن ، وكان آخر نواب للملك فی الهند ، قبيل الاستقلال .

الموقف بطريقته الخاصة ، ففرض على نفسه الصوم فى اليوم التالى وأعلن أنه « لن يعدل عن صومه حتى يثوب الناس فى كلكتا إلى رشدهم » ، فكان لصومه أثر السحر ، فاذا أولئك الذين راحوا يعملون فى الناس نهبا وسلبا وتقتيلا وسط صيحات الفرح والاستحسان يأتون اليه صاغرين،يركعون عند مخدعه،ويطلبون منه الغفران.وفى ٤سبتمبر جاءه زعماء الطوائف المختلفة فى المدينة يحملون اليه تعهداً مكتوبا ومذيلا بتوقيعاتهم ، آلوا فيه على أنفسهم أن مدينة كلكتا لن تشهد مثل هذه الاضطرابات بعد الآن . هنا ، وهنا فقط ، عدل غاندى عن صومه . وأوفت مدينة كلكتا بعهدها فلم تقع فيها اضطربات طائفية بعد ذلك حتى حين عمت الاضطرابات غيرها من المدن فى أعقاب التقسيم .

من ذلك أن مدينة دلهى ، حين عاد اليها غاندى ، كانت غارقة فى خضم من الهستريا الطائفية مما أهم غاندى وأحزنه . وإذا كان وجوده فى المدينة قد خفف من حدة الغضب والتوتر فان أعمال العنف ظلت قائمة فى أماكن متفرقة من المدينة . وشعر المهاتما فترة



غاندى يزور قرية راجانج (فى البنغال الشرقية) التى عمتها الاضطرابات الطائفية . لقد سافر بالمركب وعلى قدميه ليدخل السكينة والعزاء على قلوب ضحايا التعصب الطائفى . كانت رسالته هى رسالة عدم العنف . لقد قال للناس وقتها : « إنى أقول لكم إن النور قد سطع ولسوف يهدينا الى الطريق المستقيم ان الرسل يعيشون ويموتون ولكن رسالاتهم كثيرا ما تثمر بعد قرون عديدة . نعم ، فكم كان عدد أتباع بوذا حين مات ؟ وكم كان أتباع محمد؟ لقد عاشت تعاليمها بعد موتهما لأن عقيدتهما تقوم على الحق الأبدى » .



غاندى فى مؤتمر العلاقات الآسيوية التاريخى الذى عقد فى دلهى فى أبريل سنة ١٩٤٧ . وترى السيدة ساروجينى نايدو الشاعرة والوطنية الهندية المعروفة الى قصى اليسار ، كما جلس جواهر لال نهرو فى الوسط قال غاندى يخاطب أعضاء المؤتمر « انى لا أحب أن اعيش فى هذا العالم إذا لم يكن عالما واحداً ، وإذا أردتم أن تبعثوا برسالة من آسيا الى الغرب فلتكن هذه الرسالة رسالة الحب والحق »

بعجزه عن أن يفعل شيئاً أمام هـذا الموقف ، وهو القائل « لم احتمل قلة الحيلة طيلة حياتى » ، ولم يجد أمامه أن سبيلا غير يفرض الصوم على نفسه مرة أخرى ، فبدأ يصوم فى ١٣ يناير سنة ١٩٤٨ إلى أن ينتهى التوتر الطائفى ، وهو يقول « الحمد لله أن هدانى إلى الصوم » ويناشد الناس ألا يقلقوا من أجله وأن « يحولوا الأنوار الـكاشفة إلى ما بداخل نفوسهم » .

وتحولت الأنوار الـكاشفة بالفعل ، وإن كان من الصعب الحكم على مدى تغلغلها إلى قرارة نفوسهم ، ففى يوم ١٨ يناير ، بعد أسبوع من الترقب المؤلم والقلق الذى ينهش القلوب ، جاء مندوبون عن الطوائف والمنظمات المختلفة فى دلهى إلى « بيت بيرلا » ، حيث كان غاندى يرقد فوق سرير صغير ، منهوك القوى ولـكن مستبشرا ، فوضعوا بين يديه تعهدا مـكتوبا يقولون فيه « إننا نعاهدكم على أن نحمى حياة الناس من جميع الطوائف ، وأن نذود عن أملاكهم وعقائدهم ، وعلى أن الأحداث التى وقعت فى دلهى لن تتـكرر » . وهنا عـدل غاندى عن صومه بينـا راح الحاضرون من مختلف الملل يتلون آيات من كتبهم المقدسة .

وإذا كان صوم غاندى قد مس قلوب الملايين فى العالم كله فقد أثار حفيظة بعض المتطرفين الدينيين عليه . فنى اليوم التالى لعدول غاندى عن صومه ، وبينا هو يؤدى صلاة الغروب ، ألقيت عليه قنبلة كان من حسن الحظ أنها طاشت عن الهدف . وظل غاندى جالسا مكانه لايتحرك واستمر فى حديثه إلى المجتمعين .

فلقد كان من عادته ، على مدى سنوات طويلة ، أن يصلى جماعة مع جماهير الناس ، فكان كل مساء ، أنى كان ، يؤدى صلاته فى العراء وهو يواجه الحشود المجتمعة . ولم يتبع غاندى فى صلاته طقوسا معينة ، بل كانت تتلى آيات من الكتب المقدسة المختلفة وتنشد الترانيم ، فاذا انتهى ذلك قام غاندى يحث الحاضرين ببضع كلمات باللغة الهندية . وقد لايكون حديثه فى موضوع دينى بل كثيرا ما كان يتناول أحد موضوعات الساعة . وأيا كان الموضوع الذى يتحدث عنه فقد كان دائماً يرتفع بحديثه إلى مستوى روحى وأخلاقى رفيع فيبدو ، حتى وهو يتكلم فى موضوع سياسى ، وكأن رجلا من رجال الدين يهدى الناس إلى طريق الصواب .

وكانت هذه الاجتماعات أحيانا صغيرة تتألف من بضعة أفراد ، وأحيانا أخرى كبيرة تضم المئات أو الآلاف ، حسب المكان الذى تقام فيه الصلاة. وكان الناس من جميع الأديان

ومن جميع الميول السياسية أحرارا فى حضور هذه الاجتماعات ، فلم تكن هناك قيود على الاطلاق . وكان غاندى وهو جالس فوق منصة مرتفعة عن سطح الأرض هدفا سهلا لأى اعتداء . ولم يكن غاندى حتى ذلك الوقت فى حاجة إلى حماية الا من الجماهير التى بلغ تعلقها به حد التقديس فتتزاحم حوله كل يريد أن يلمس قدمه ، كما هى عادة الهنود حين يريدون التعبير عن احترامهم وتبجيلهم . ولكن الزمن كان تغير الآن وأصبح مشحونا بالإحن ، فالاضطرابات الطائفية العنيفة كانت قد انطلقت من عقالها واكتسحت مشاعر الناس، والمتعصبون الدينيون قد ضاقوا بعقيدة الحب التى ينادى بها غاندى ، وأعصاب الشرطة قلقة مضطربة . ومع أن غاندى قد حذر مرارا من احتمال الاعتداء عليه فقد رفض أية حماية يوليها له رجال الشرطة وأبى أن يعيش إلا بالحب وعلى الحب ، وهو القائل قبل ذلك بأربعين سنة، حين حاول أحد البطهانيين الاعتداء عليه فى جنوب افريقية « الموت هو النهاية المحتومة للحياة ، ولئن مت على يد واحد من اخوانى ، ولم أمت بالمرض أو ماشابهه ، فلن يكون ذلك سبب حزن لى ، فاذا خلا قلبى فى تلك الحالة من كل غضب أو حقد على من اعتدى على فانى على ثقة بأن ذلك سوف يعود على بالخير الأبدى » .



مكان الصلاة فى « بيت بيرلا » ، بدلهى ، حيث اغتيل المهاتما غاندى على يد متعصب دينى فى ٣٠ يناير سنة ١٩٤٨ ، ويرى الطريق الذى وطأته قدماه لآخر مرة والدرج المؤدى إلى منصة الصلاة ـ فما أجل قول غاندى « إذا مت تحت وابل من الرصاص وعلى شفتى ابتسامة فقد مت ميتة الأبطال » .

وقد أثبتت الأيام صحة هذه النبوءة . ففى يناير سنة ١٩٤٨ ، أى بعد عشرة أيام من حادث إلقاء القنبلة عليه ، أسرع غاندى يصعد الدرج القليل المؤدى إلى مكان الصلاة فى حديقة « بيت بيرلا » الفسيحة ، وكان نائب رئيس الوزراء ، السردار فالابهاى باتل ، قد استبقاه ريثما ينتهى من حديثه معه فوصل متأخراً عن موعد الصلاة بضع دقائق على الرغم منه ، فلقد كان غاندى دقيقاً دائماً فى مواعيده حريصاً على المحافظة عليها ، وقد أهمه أن يكون المجتمعون قد انتظروه بعد موعده . وتمتم يقول « لقد تأخرت عشر دقائق » ثم رفع يديه وضم كفيه إلى بعضهما تحية للحاضرين . ورد عليه الحاضرون التحية بمثلها ، واندفع عدد كبير منهم نحوه يحاولون لمس قدمه فحيل بينهم وبين أن يفعلوا ذلك فلقد تأخر غاندى عن موعده المحدد ، غير أن شاباً هندوسياً من بونا استطاع أن يقتحم الطريق حتى وصل عنده وتظاهر بمظهر من يؤدى له واجب الخشوع ثم إذا به يطلق عليه ثلاث رصاصات من مسدس اتوماتيكى صغير صوبه نحو قلبه مباشرة . وسقط غاندى على الأرض وشفتاه تنبسان باسم الله « رام . رام » (الله . الله .) ، وتوقف القلب الذى كان لاينبض إلا بحب الناس عن النبض قبل أن يصل رجال الاسعاف الطبى

لقد مات غاندى ، مات على يد واحد من أبناء طائفته ، فكان موته تمجيداً خالداً لكل



النعش الذى احتوى جثمان المهاتما غاندى وقد حمل فوق عربة رفعت عليها الأعلام ونثرت الزهور .



الموكب الجنائزى . لقد خرجت الملايين ، ليودعوا « ابا الشعب » الذى قادم إلى الحرية والاستقلال الوداع الأخير

ماماش وعمل من أجله وخزيا أبديا لأولئك الذين عجزوا عن ان يدركوا أنه كان خير ممثل لطائفته وخير معبر عن تعايش جميع الطوائف الدينية فى وفاق ووئام حتى استشهد فى سبيل تحقيق ذلك .

وقد عبر رئيس الوزراء نهرو أحسن تعبير عن شعور الشعب بازاء هذا الحادث الجلل حين وقف ينقل الخبر المحزن إلى مواطنيه بالراديو فيقول فى صوت متهدج وبقلب أفعمه الحزن :

« لقد خبا النور من حياتنا وانتشر الظلام فى كل مكان ، فلم أعد أعرف ما أقوله لكم ولا كيف أقوله . لقد اختفى زعيمنا المحبوب ، « بابو » ، أبو الشعب ، من بيننا . . . لقد قلت إن النور قد خبا من حياتنا ولكننى قد أخطأت . فان هذا النور الذى سطع على البلاد لم يكن نورا عاديا . إن النور الذى أضاء حياة هذه البلاد سنوات عديدة سوف يظل يضيئها سنوات عديدة أخرى ، وسوف يبقى ماثلا أمام أعين الناس بعد ألف سنة ، يراه العالم أجمع ، ويدخل السكينة على قلوب لا حصر لها ، فان هذا النور كان يمثل الحق فى صورته الحية . فلقد أقام هذا الرجل الخالد بيننا يحمل رسالة الحق الخالد ، ويذكرنا بالطريق المستقيم ، ويجذبنا بعيدا عن الخطأ ، ويقود هذا البلد القديد نحو الحرية . . . . »

على أن الرجال من أمثال غاندى لا يمكن أن يموتوا أبدا ، فهم أحياء بما أنجزوه فى دنياهم من أعمال ، وقد كانت أعمال غاندى متعددة ، كل عمل منها ، إذا حكم عليه بالطريقة العظيمة التى حقق بها أو بنتائجه التى عادت على الانسانية بالخير ، كان كفيلا وحده بتخليد اسمه فى كل مكان فى العالم . فلقد انتشل شعبا من نير الاستعباد الأجنبى فجعل منه أمة تؤلف خمس الجنس البشرى بأجمعه . ولن يقل عن ذلك أهمية ما عمله من أجل فئة من الشعب كانوا يعرفون فيما مضى بالمنبوذين فحرر بذلك ملايين البشر من قيود الاستعباد الطبقى وحياة الذلة الاجتماعية . كذلك استطاع ، باصراره على أن الحرية إنما تقاس برفاهية الملايين

الذين يعيشون فى القرى ، أن يضع أسس حياة جديدة قد يتهيأ لها يوما أن تكون البديل للاقتصاد الموجه والاقتصاد الرأسمالى على السواء. ثم لقد أخزى استشهاده قومه فلن يعودوا إلى جنون الطائفية مرة أخرى ، كما ساعد فى الوقت نفسه على تحقيق السمات العلمانية والديمقراطية التى تمتاز بها دولة الهند .

إن الأثر الأدبى الذى توفر لشخصية غاندى ، وانجيله الذى يقوم على عدم العنف ، والصنعة المحكمة التى مارس بها البعد عن العنف ، كل ذلك لا يمكن أن يوزن فى موازين الماديات ولن تقتصر أهميته على بلد واحد ، أو على جيل بعينه . إنه هديته التى لن يمحوها الزمن للانسانية عامة .



جواهرلال نهرو يضع إكليلا من الزهور عند سامادهى غاندى (مكان الراحة الأبدية) .

« ان قضية من القضايا لن يضيّعها شيء قدر ما تضيعها المبالغة » .

* * *

« الرجولة فى أن تخضع الظروف لإرادتنا »

* * *

« لقد ظل شعور الناس بالفخر حين يستذلون اخوانهم فى الإنسانية لغزا مغلقا لا أجد له حلا » .

* * *

« ذهبت مرة الى حلاق انجليزى وأنا فى بريتوريا فرفض أن يقص شعرى فى احتقار وازدراء . وشعرت بأن كرامتى قد امتهنت ولا شك ، ولكنى اشتريت مقصا على الفور وقصصت شعرى أمام المرآة . وقد نجحت الى حد ما فى قص شعرى عند مقدمة الرأس ولكنى أتلفته من الخلف . وضحك زملائى فى المحكمة واهتزت أجسامهم من شدة الضحك وهم يقولون «ماذا حدث لشعرك يافاندى ؟ أهى الفيران قد أكلته ؟ » وأجبتهم « كلا ، بل الحلاق الأبيض أبى أن يلمس شعرى الأسود» .

* * *

« ان صرح الوحدة العالمية لن يقوم إلا على أساس عالمي من عدم العنف » .

* * *

« ان فكرتي عن الديمقراطية هي أنها تهيء في ظلالها لأضعف الناس ما لأقوام من فرص » .

* * *

« قد يستطيع شعب من الشعوب أن يستغنى عن أصحاب الملايين ورءوس الأموال من أهله ، لكن ما من شعب يستطيع أن يستغنى عن عماله » .

* * *

« ان جمال الوحدة الحقيقية بين الهندوس والمسلمين يتجلى أحسن ما يتجلى في أن يظل كل منهما مخلصا لدينه وأن يكون كل منهما مع ذلك مخلصا للآخر . . . .
إن وحدة الهندوس والمسلمين ينبغى أن تقوم على إحساسنا بوجود غرض مشترك ، ومرمى مشترك ، وأحزان مشتركة ، وإن خير ما ينميها لهو التعاون على بلوغ هذا المرمى المشترك عن طريق مشاركة كل منهما في أحزان الجانب الآخر والتسامح المتبادل بينهما » .

* * *

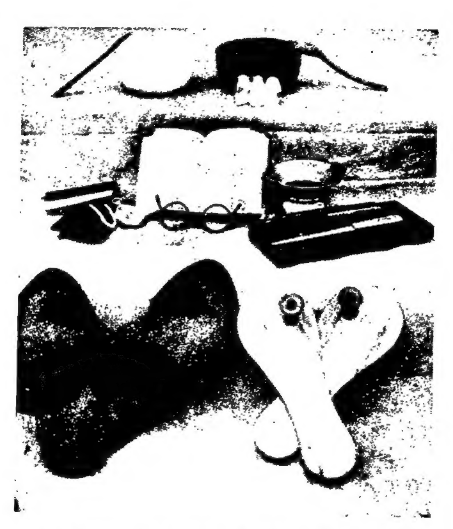
« لقد كان من حظ المرأة أن تعلم فن السلام لعالم متحارب يتعطش إلى رحيق السلام » .

* * *

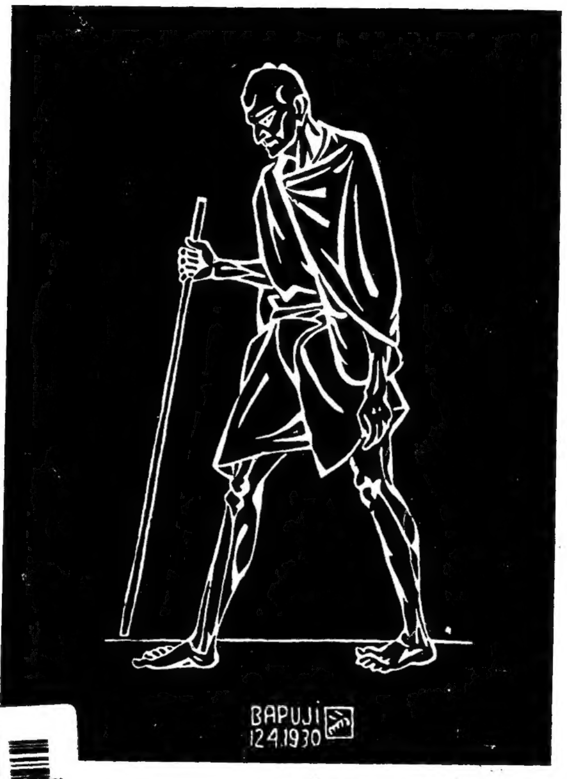
« لا أريد أن أولد مرة أخرى ، ولكنى إذا ولدت فانى أريد أن اولد وسط المنبوذين لأشاركهم صعوباتهم وأعمل من أجل تحريرهم » .



يدا للهاتما غاندى . . . . يداه اللتان حلتا محبة السلام والرفاهية ، يداه اللتان صاغتا ملايين الناس فى قالب جديد بمــا سطرتا من كتابات خلاقة .



لم تكن للمهاتما غاندى حاجة الى كثير من متاع الدنيا ـ وفى الصورة نجد كل ماتركه من متاع هذه الدنيا عند موته ، لكنه ترك للناس شيئا أعظم من متاع الدنيا ـ ترك لهم رسالة الطهر فى الفكر والعمل ، والتحرر من الخوف ، وحب الحق ، ثم الدرس المستمد من القرده الثلاث « لاتتحدث سوءا ! لاتسمع سوءا ! لاتشهد سوءا ! »



حفر على الخشب للمهاتما غاندى من عمل الفنان لاندلال بوس

العام المئوى لمولد المهاتما غاندى

Bibliotheca Alexandrina
0251362